الطبعة

الدروس الحكمية الثافية
الاسلامية

170:A99dA:c.1
العظم، رفيق
الدروس الحكمية للناشئة الاسلامية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001918

170:A99dA
العظم ، رفيق .
الدروس الحكمية للناشئة الاسلامية .
FRR149
170
A99dA
2 Jun 71

170
A99dA
C.1

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

الدروس الحكمية

للناشئة الاسلامية

تأليف

(رفيق بك العظم)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

طبع بالمطبعة الوطنيه بدمشق سنة ١٣٢٨ هـ

٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي جعلَ الانسانَ عَلَى نفسهِ بصيرة. وفضلهُ عَلَى سائرِ خلقهِ بأنْ منحهُ منَ العقلِ هدىً ونوراً . واورثهُ الارضَ ليكونَ خليفةً فيها . ووهبهُ منْ اسبابِ السعادةِ نعماً لايحصيها . وارسلَ رسلهُ بالبيناتِ والهدى لاوضحِ محجةٍ (لئلا يكونَ للناسِ عَلَى اللهِ حجة) ولهُ سبحانه الحجةُ البالغةُ عَلَى الناسِ اجمعين . فانهُ القائلُ (وفي الارضِ آياتٌ للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون) وصلى اللهُ عَلَى سيدنا محمدٍ خاتمِ النبيين . المنزلِ عليهِ (كتابٌ فصلتْ آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون) وعَلَى آلهِ الطاهرين واصحابهِ البررةِ الصادقين ومنْ قالَ بقولهم ودعا بدعوتهم منَ المخلصينَ (ومنْ احسنُ قولاً ممنْ دعا الى اللهِ وعملَ صالحاً وقالَ انني منَ المسلمينَ (امابعدُ) فانَّ منْ تصفحَ الجرائدَ الاسلاميةَ في هذه الايامِ يرى فيها منْ آثارِ التألمِ الصادرِ عنْ فريقٍ منْ نبهاءِ المسلمين في

الشرقِ والغربِ قاموا في وسطِ المجموعِ الاسلاميِّ يدعونهُ الى الرشدِ بمزعجاتِ النذرِ ومؤثراتِ البيانِ مايدلُّ على تنبه الشعورِ عند بعضِ المسلمينَ بالخطرِ المحيقِ بهذه الامةِ وتحسسِهم على بابٍ تخرجُ منهُ من هاويةِ السقوطِ التي تتخبطُ فيها من عدةِ اجيالٍ لعللٍ واسبابٍ اخذ بتتبعِها واستقصاءِ البحثِ فيها اولئك الكتابُ فشخّصوا الداءَ ووصفوا الدواءَ ولكن على اختلافٍ في القولِ وتعددٍ في مذاهبِ البيانِ ينتهي كلهُ الى نتيجةٍ واحدةٍ وهي وجوبُ الاصلاحِ .

وكنتُ كتبتُ معَ من كتبَ في تشخيصِ الداءِ ووصفِ الدواءِ مقالاتٍ منهامانشرفي «جريدةِ المؤيدِ» الخطيرةِ ومنهاما نشرَ في جريدةِ «المنارِ» الاسلاميةِ الغراءِ قلتُ في بعضِهافي تشخيصِ الداءِ مانصهُ:

وقدتقدمتِ الاشارةُ الى القاءِ تبعةِ التقهقرِ على كواهلِ اولياءِ الامرِ في الاسلامِ وذلك لِمَا ادخلوه منَ الضعفِ على نفوسِ الكافةِ بتربيتهم الشعوبَ على مبدأٍ يخالفُ ماتأسسَ عليه الاسلامُ وقامتْ على دعائمه الدولُ الاسلاميةُ الاولى توصلاً لوقوفِ تيارِ العلمِ اليقينِ عندَ حدٍّ لايتجاوزُ الضروريَّ

من امرِ الحياةِ حتى تأصل في النفوسِ داءُ الضعفِ وخضعتْ ادارةُ الشعوبِ الاسلاميةِ لسلطانِ السلطةِ القاهرةِ التي استفادتْ من ذلك بسطَ النفوذِ المطلقِ على العقولِ والافكارِ اجيالاً متطاولةً انتهتْ بانحلالِ العزائمِ وخمودِ الافكارِ لغايةٍ اضلتِ الحيلةَ عنْ ذوي الشعورِ الحيِّ في هذا العصرِ الذينَ يبحثونَ عنْ دواءٍ يشفي داءَ التقهقرِ الملمِّ بالمسلمينَ ولوْ رجعوا بالبحثِ الى قرونِ المجدِ الاسلاميِّ الاولى لوجدوا لذلكَ دواءً اتمَّ اجزائِه انطلاقُ العقولِ من قيدِ الحجرِ المضرِّ وذهابُها في مناحي العلومِ كلِّ مذهبٍ تتناولُ به معرفةَ الحقوقِ والواجباتِ العلميةِ والاجتماعيةِ بما تمكنَ فيها من اصولِ التربيةِ على مباديءِ الفضيلةِ التي هي اساسُ العملِ في الشريعةِ الاسلامية ومنبعثُ حياةِ المجدِ الاسلاميِّ الذي قام على دعائمِ العملِ بمعنى قولهِ تعالى (ولقدْ ارسلنا رسلنا بالبيناتِ وانزلنا معهمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ

وقلتُ في بعضها انَّ حياةَ الاسلامِ انما كانتْ بالتكافلِ العامِّ على قيامِ شرائعهِ وسننهِ وقدْ ضعفَ الاسلامُ لما ضعفَ التكافلُ بلْ زال فضعفَ بعدَه المسلمونَ ولا يزالونَ كذلكَ

ماداموا غافلينَ عنْ مصالحِهمُ الاجتماعيةِ التي لا قيامَ لها عندَ كلِّ امةٍ الاَّ بالتكافلِ العامِّ وقدْ رأيتُ انَّ الدواءَ لداءِ المسلمينَ هذا إنما هوَ محصورٌ في التربيةِ على اصولِ الفضائلِ الاسلاميةِ التي اهمُّها استقلالُ العقلِ والارادةِ وفي توحيدِ الكلمةِ على مباديءِ الشريعةِ التي تضمُّ مانفرقَ منْ شملِ المسلمينوتحيي ما اندثرَ منْ معالمِ العلمِ اليقينِ . وإنما اخترتُ في الحصولِ على الدواءلداءِ التقهقرِ طريقَ الدينِ لانَّ بهِقامَ المجدُ الاسلاميُّ ومدنيتهُ وعليهِ تأسستْ . دعائمُ الدولِ العظيمةِ في الاسلامِ وتبسطتِ الامةُ الاسلاميةُ في مناحيِ العمرانِ فضعفُها وقوتُها يكونانِ بنسبةِ ضعفِ وقوةِ الدينِ بخلافِ الامِ الاخرى التي قامتْ من جهةٍ غيرِ جهةِ الدينِ أومخالفةٍ لهُفانَّ ضعفهنَّ وقوتهنَّ بنسبةِ ضعفِ وقوةِ الجهةِ التي قمنَ بهاوتأسستْ مدنيتهنَّ عليها (سنةَ اللهِ في الذينَ خلوْا من قبلُ ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً) لاسيماَّ وأنَّ الشريعةَ الاسلاميةَ جاءتْ باصولِ الفضائلِ المناطِ بها ترقيّ المجتمعِ الاسلاميِّ وأخصُّها مخاطبةُ العقلِ وحثُّهُ على العملِ والحريةِ والعلمِ وغيرِ ذلك وهيَ الاصولُ التي لمْ يتيسرْ لغيرِ المسلمينَ الحصولُ عليها الاَّ منْ طريقِ القوةِ في مقاومةِ

العوارضِ التي تحولُ دونَ الوصولِ الى هذهِ الاصولِ .

ولا بدَّ في تربيةِ الافكارِ الآنَ عَلَى مباديءِ الشريعةِ من وضعِ كتبٍ جديدةٍ تبينُ مزاياَ الدينِ الاسلامي للناشئةِ الاسلاميةِ من جهةِ ما يقومُ أودَ النفوسِ الناشيءَ عن خلطِ الاعتقادِ الصحيحِ بالبدعِ التي أضعفتِ النفوسَ من جهةٍ وازاغتْ ضمائرَ بعضِ الناشئةِ عن حقيقةِ الاسلامِ من جهةٍ أُخرى لترشدَ تلك الكتبُ النشءَ الاسلاميَّ الى الدينِ منْ طريقِ العلمِ والعقلِ والى العملِ منْ طريقِ الدينِ فتزرعُ في نفوسِهم حبَّ العملِ والعلمِ وحبَّ الدينِ والوطنِ وحبَّ الثباتِ وغيرَ ذلك من الكمالاتِ النفسيةِ والواجباتِ الانسانيةِ التي نبهَ عليها القرآنُ وجاءَ بها الاسلامُ .

وهذا ماقصدتهُ منْ وضعِ هذا الكتابِ بعدَ ان ساورني هذا الفكرُ مدةً كنتُ أُقدمُ في غضونها قدماً وأُؤخرُ أُخرى لعلمي بعجزي عنْ ادراكِ بعضِ ما اشتملَ عليهِ هذا الدينُ القيمُ والقرآنُ الكريمُ من معجزاتِ الحكمِ التي هيَ مناطُ السعادةِ في الدارينِ عَلى أنَّ مالا يدركُ كلُّهُ لا يتركُ قلُّهُ لهذا استخرتُ اللهَ وبدأتُ بأنْ ألقيَ دروساً منْ هذا القبيلِ عَلى

طلبةِ السنةِ الرابعةِ من المدرسةِ العثمانيةِ بمصرَ لما انيطَ بي ادارةُ شؤونِها منذُ أمدٍ قريبٍ على املِ ان أتمَّ هذه الدروسَ واضعَها في كتابٍ مخصوصٍ ينتفعُ بهِ سائرُ أبناءِ الاخوةِ الاسلاميةِ ثمَّ رأيتُ انَّ قربَ انفضاضِ طلبةِ السنةِ الرابعةِ واشتغالَهم بالمذاكراتِ العلميةِ استعداداً للامتحانِ السنويِّ يذهبُ بثمراتِ ما أُلقيهِ عليهم فقطعتُ التدريسَ وباشرتُ باكمالِ الدروسِ وتأليفها في هذا الكتابِ وقسمتهُ الى ثلاثةِ اقسامٍ في الاجتماعِ . مباديهِ وروابطهِ ومقوماتهِ . ليكونَ أشبه بمرقاةٍ يرى فيها كيفيةُ تدرجِ الانسانِ في مراقي الحضارةِ والعمرانِ بما وهبهُ اللهُ من قوةِ العقلِ والارادةِ وارشدهُ اليهِ من طرقِ السعادةِ وجعلتُ تحتَ كلِّ قسمٍ منها دروساً مستمداً فيها مادةَ البيانِ من آيِ القرآنِ . فاذا صادفَ على هذا قبولاً عندَ العقلاءِ فذلكَ هوَ المقصودُ والاَّ فلا أقلَّ من ان يكونَ نموذجاً لمريدي الاصلاحِ الحقيقيِّ في الامةِ الاسلاميةِ وقد سميتهُ (الدروسَ الحكميةَ للناشئةِ الاسلاميةِ) وأنا استغفرُ اللهَ من كلِّ خطإٍ يقعُ فيهِ وارجوهُ العفوَ والمغفرةَ لما يعلمهُ سبحانهُ من حسنِ قصدي واخلاصِ ضميري في كلِّ ما يخطُّهُ قلمي لخدمةِ الاسلامِ والمسلمينَ واللهُ وليُّ المتقينَ

القسمُ الاولُ في ذكرِ المبادئ

﴿ الدرسُ الاول ﴾

(وخلقَ الانسانُ ضعيفا)

هذه فاتحةُ دروسٍ افتتحها لكم ايها الاخوانُ النجباءُ وأمليها عليكم شذراتٍ تكونُ كسلسلةٍ من حكمٍ عليها تنفعكم في حاضرِ اوقاتكم ومستقبل حياتكم على شرطِ ان تقبلوا بكليتكم عليَّ وتكونوا كلكم آذاناً مصغيةً الىَّ فاني منذُ مدةٍ أحاولُ ان اقفَ امامكم موقفَ الواعظِ المذكرِ الذي انما يهمهُ تذكيرُ أبناءِ ملتهِ والناشئين من بنيِ وطنهِ بان القليلَ من العملِ خيرٌ من كثيرٍ من العلمِ بلا عملٍ وان مناطَ الحياةِ الطيبةِ التربيةُ على مبدإِ العلم لان الانسانَ انما خلقَ ليعملَ فيحيا لا ليهملَ فيموتَ وفي قولهِ تعالى (وخلقَ الانسانُ ضعيفا) مايشيرُ الى شيءٍ من هذا المعنى وربما تقولون واىّ معنىً في هذه الايةِ يؤيدُ ماذهبتَ اليه ونحن نرَى انّ هذا البسيطَ الارضيّ

المملوءِ بمجالي العمرانِ المتسعِ البالغِ منتهى الفخامةِ والاعجابِ بموضوعاتِ الانسانِ شاهدٌ عدلٌ على مبلغِ قوةِ الانسانِ وقدرتهِ في ترقيةِ شؤونِ العمرانِ (فالجوابُ) عن ذلك بسيطٌ جداً يظهرُ لكمْ من قولي فيما تقدَّمَ انَّ الانسانَ خلقَ ليعملَ فيحيا لا ليهملَ فيموتَ اي انه ضعيفٌ باعتبارِ النشأةِ الاولى فاذا أهملَ او أُهملَ استمرَّ على ضعفهِ فماتَ واذا تربى وعلم نشطَ فعملَ فيحيى واليكمُ البيانَ

أُنظروا يارعاكمُ اللهُ الى مبدإِ الانسانِ في حالِ نشأَته ودورِ طفوليتهِ ترونهُ اضعفَ من انواعِ الحيوانِ قاصراً عاجزاً جزوعاً هلوعاً يترصدهُ الحيوانُ المفترسُ بمخلبٍ وناب وتكتنفهُ الطبيعةُ بمصائبَ وأوصابٍ فيدبُّ محاطاً بمكارهِ الطبيعيةِ الخارجيةِ من امراضٍ قتالةٍ وعوارضَ مغتالةٍ ثم يشب فيقعُ في قبضةِ مكارهِ النفسِ الداخليةِ فيكونُ في الحالينِ أيْ منذُ يدبُّ الى انْ يشبَّ عرضةً للمهالكِ بينَ عاملينِ قويينِ اسهلهما عليه اقتلهما لهُ وليسَ هذا حالَ الانسانِ باعتبارِ الطفوليةِ فقطْ بلْ هو حالهُ ايضاً باعتبارِ اولِ وجودِ الانسانِ على الارضِ اذ انَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى لما خلقَ الانسانَ

خلقهُ سليمَ الفطرةِ ساذجاً ليسَ عندهُ منَ القوةِ الطبيعيةِ والالهاماتِ الفطريةِ ماعندَ سائرِ الحيوانِ ليدفعَ بها الآفاتِ ويصدَّ الهجماتِ اللهمَّ الاَّ مسحةً منَ العقلِ الفطريِّ كانت لاتغني عنه من الحياةِ شيأً ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أودعَ في خزائنِ ذلك العقلِ اسراراً كامنةً فيهِ كمونَ النارِ في الزنادِ فكما انَّ هذه لاتظهرُ الاَّ بالقدحِ كذلك تلكَ الاسرارُ — وهيَ مداركُ العقلِ الفائقةُ — لاتظهرُ الاَّ بالاحتكاكِ بالمقاصدِ الحيويةِ التي لاتتناهى في جانبِ العقلِ البشريِّ ومثالهُ انَّ الانسانَ اذا جاعَ ثمَّ اكلَ شيئاً منْ نباتِ الارضِ فشبعَ لايقتصرُ في سائرِ ايامِ حياتهِ على ذلك النباتِ بل يبحث عن غيرهِ ويتطلبُ سواهُ مما يكونُ اعظمَ تغذيةً والذَّ طعماً وهكذا الحالُ في سائرِ مايحتاجُ اليهِ الانسانُ ولهذا السببِ امتازَ الانسانُ عن جميعِ الحيوانِ ومنْ ثمَّ كانَ بدءُ صعودهِ من حضيضِ البهيميةِ الى اوجِ البشريةِ بالطرقِ التدريجيةِ والالهاماتِ العقليةِ التي تترقَّى برقيِّ الحاجةِ وتنمو بنموِ وسائلِ التربيةِ والتعليمِ

الدرسُ الثاني

الانسانُ عاقل

« انَّا هديناهُ السبيل »

علمتمْ مماَّ تقررَّ في الدرسِ الماضي أنَ الانسانَ في دورهِ الاولِ كانَ أضعفَ انواعِ الحيوانِ وماذلكَ الاَّ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أودعَ في كلِّ حيوانٍ سواهُ الهاماً خاصاً وادراكاً محدوداً يسيرانهِ في طريقِ الحياةِ بدافعٍ فطريٍّ يعيشُ بهِ عيشةً بهيميةً غيرَ قابلةٍ للتغييرِ والبسهُ من القوى الظاهرةِ لباساً لايحتاجُ معه لاستعمالِ سلاحٍ آخرَ لدفعِ آفاتِ الطبيعةِ وهجماتِ العدوِّ واماَّ الانسانُ فليس كذلك بلْ هو ذو قوىً عقليةٍ كامنةٍ فيه كما تقدمَ وقابلةٍ للزيادةِ والنقصِ او الظهورِ والاختفاءِ ويحتاجُ لاستعمالها في امرِ المعاشِ وتدبيرِ وسائلِ الحياةِ التي لاتصدرُ عنه الاَّ بعدَ الرويةِ والتفكرِ فيما يدفعُ عنه الشقاءَ في الحياتينِ ويسهلُ لهُ طريقَ السعادةِ للدارينِ فاذا استعملَ تلكَ القوى معَ الرويةِ والتفكرِ نجا وصلحَ والاَّ هلكَ واليهِ وردتْ الاشارةُ في قولهِ تعالىَ (انَّا هديناهُ السبيلَ اماَّ شاكراً واماَّ كفورا)

لهذا كان الانسانُ ضعيفاً بالنسبةِ للحيوانِ مالمْ يعملْ بما رزقهُ اللهُ من قوىَ العقلِ لآخرتهِ و يشتغلُ في تدبيرِ المعيشةِ لدنياه وما دامَ ذلكَ كذلك فلاَ ريبَ انَّ الانسانَ يحتاجُ في تدبيرِ المعيشةِ الى وسائطَ كثيرةٍ اهمها التعاونُ والاجتماعُ ونخالُ انَّ اولَ شعورٍ تنبه في هذا النوعِ هو الشعورُ بعجزِ كلِّ انسانٍ بمفردهِ عن مجاراةِ الحيوانِ في طرقِ المعيشةِ الفطريةِ واحتياجهِ الى مساعدةِ من عداهُ من بني النوعِ في تدبيرِ شؤونِ الحياةِ البشريةِ فكان ذلك من بواعثِ انضمامهِ في اولِ حلقةٍ من حلقاتِ الاجتماعِ او جمعيةٍ من جمعياتِ البشرِ التي كانت تدبرُ اصولَ معيشتها علَى ابسطِ صورةٍ يمكنُ ان يتصورَّها العقلُ لمثلِ الجمعيةِ الاولىَ للانسانِ ومنْ ثمَّ كان مبدأُ التآلفِ والاتحادِ من اهمِّ المبادئِ التي تأسستْ علَى دعامتها سعادةُ البشرِ الدنيويةُ وحياتهم القوميةُ كما سترونَ ذلكَ مفصلاً فيما يلي من الدروس ان شاءَ اللهُ .

﴿ الدرسُ الثالث ﴾

﴿ الانسانُ مدَنيّ ﴾

(علمَ الانسانَ ما لمْ يعلمْ)

بعدَ انْ كانَ الانسانُ يسكنُ الغاباتِ الكثيفةَ ويأوي الى ظلِّ الاشجارِ الغضةِ ويأكلُ من نباتِ الارضِ ويهيمُ من الحيرةِ في كلِّ وادٍ ثم دخلَ كما قدَّمنا في اوّلِ طورٍ من اطوارِ المدَنيةِ وهو الاجتماعُ أخذ يبني لنفسهِ الاكواخَ الحقيرةَ وينحتُ في الجبالِ بيوتاً — ومنها الكهوفُ الصناعيةُ التي ترَى في كثيرٍ من الجبالِ — اتقاءَ عوادِي الطبيعةِ ودفعاً لمخاطرِ الوحدةِ ثم ما زالَ يتسعُ امامهُ مجالُ الفكرِ وتتشعبُ طرُقُ المقاصدِ بتشعبِ طرقِ المعيشةِ حتى تولدتْ فيهِ قوّةُ الاختراعِ وقوةُ الحرْصِ والطمعِ فنما عندهُ حبُّ التغالي بمظاهرِ الاجتماعِ والتغالبُ في ميدانِ المناظرةِ الدنيويةِ فاحتاجَ للاعتصامِ بقوةِ الاجتماعِ في المدنِ طلباً لرفاهِ العيشِ وهرَباً من عناءِ البداوةِ فخططَ المدنَ وابتنى المعاقلَ والحصونَ ومصرَ الامصارَ وشيدَ

فيها شاهقات القصور وزاهيات المنازل والدور وكان في غصون ذلك يجول بفكره في مناحي الطبيعة باحثاً عما اودع الله فيها من الاسرار واوجد من المنافع في المواليد الثلاث ليسخر منها لمصلحته ما شاء فيما شاء ومن نعم الله سبحانه وتعالى ورأفته بهذا النوع الانساني ان جعل له من العقل سلطاناً اذا اطلقه من وثاق الاوهام تناول به اسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من اعماق الارض بلا حرج عليه ولا حجر لينتفع بها في الحياة الدنيا ويتوصل بها لتعظيم الصانع جل وعلا فينال بذلك سعادة الآخرة والأولى والى هذا وردت الاشارة بقوله تعالى في القرآن الكريم (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون)

وانما خوطب الناس بهذا بعد ترقي العقل البشري الى مقام العلم الداعي للتكليف الموجب للتبصر في مكنونات الارض والسماء فسبحان من اجزل للانسان بدائع النعم ومن عليه بالعلم فقال تعالى (علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)

الدرسُ الرابع

الانسانُ الكامل

(بل الانسانُ على نفسهِ بصيرة)

هكذا كان حالُ الانسانِ وكذلك خرجَ من مصافّ بقيةِ الحيوانِ وصعدَ بالتدريجِ من وهادِ البهيميةِ الى اوجِ الحضارةِ والمدنيةِ ولا يزال كذلكَ ما دامَ دائباً في تتبعِ اسرارِ الطبيعةِ مشتغلاً في اكتشافِ كنوزِها التي اودعها الله فيها ذخيرةً خيرةً للانسانِ يتناولها بقوةِ العقلِ ويصلُ اليها بالمثابرةِ على العملِ فيزرعُ ويستثمرُ ويصمرُ ويستعمرُ ويخترعُ ويبتدعُ ويتفيأُ ظلالَ العمرانِ ويستمدُّ مادةَ الحياةِ الطيبةِ مع توالي الازمانِ من خلالِ المتاعبِ والمشاقِ التي يتكبدها في استجلاءِ الحقائقِ واطلاقِ الفكرِ في اطرافِ الوجودِ يتناولُ بهِ من اسرارهِ قوةً تدرأُ عنه فوائلَ الضعفِ الطبيعي الذي فطرَ عليهِ وتدفعُ طواريءَ الطبيعةِ واخطارها التي تكتنفهُ وقد جدَّ الانسان وراء هذهِ الغايةِ فوصلَ وفعلَ في هذا الوجودِ من آثارِ العقل ما فعلَ مما هو مشاهدٌ بالعيانِ في كلِ زمانٍ ومكانٍ . ولكن.

بماذا وصلَ الى ذلك ؟ هل بمجردِ كونهِ انساناً عاقلاً ضعيفاً قوياً لا. بل توصلَ الى ذلك تدريجاً باعمالِ الفكرِ والاسترشادِ الى طرقِ السعادةِ بنورِ العلمِ الذي استمدهُ من الشرائعِ الالهيةِ واهتدى به الى تطهيرِ النفسِ البشريةِ من أدرانِ البهيميةِ فاقامَ لهُ ذلك العلمُ من نفسهِ على نفسهِ حسيباً يهديه نورُه واحلهُ من هذا الوجودِ في مكانٍ كانَ فيهِ كما وصفهُ اللهُ تعالى « بلِ الانسانُ على نفسهِ بصيرة »

ومنْ ثمَّ تكونُ منه الجماعاتُ العظيمةُ شعوباً وقبائلَ شيدتْ أُسسَ الممالكِ وأقامتِ الحكوماتِ ورفعتْ دعائمَ الدولِ . لهذا كانَ الدينُ ضرورياً للاجتماعِ ملازماً للبشرِ في سائرِ اطوارِ الحضارةِ التي لا تقومُ الا به ومنهُ تستمدُّ الروابطُ والمقوماتُ التي هيَ من لوازمِ الاجتماعِ المدنيّ وضروريات الترقي البشري كالملكِ والعدلِ والحريةِ وطاعةِ اللهِ وحبِ الناسِ وحب الوطنِ وحسنِ المعاملةِ والاعتمادِ على النفسِ والجدِّ في العملِ وغيرِ ذلك من الروابطِ والمقوماتِ التي هي غرضنا من هذه الدروسِ وسنفصلها عليكم باباً باباً تفصيلاً تعلمون منهُ مايلزمُ لترقي الشعوبِ ويصاحبُ الحضارةَ

والعمرانَ معَ توالي الازمان ؟ ونبدأُ منْ ذلك بذكرِ الروابطِ وأَولها الدينُ لانه اساسُ الخيرِ المبنيِّ على المصلحة العامة . ونسأَلُ اللهَ سبحانه وتعالى أَنْ يسددَ قولنا ويثبتَ في مواطنِ الحقِّ قدمنا انه اكرمُ مسؤُول

القسمُ الثاني في ذكرِ الروابطِ

﴿ الدرسُ الخامس ﴾

« حاجةُ البشرِ الى الدين »

(ولقد أَرسلنا رسلنا بالبينات وأَنزلنا معهم الكتابَ)

(والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسط)

اعلموا أَنَّ حاجةَ البشرِ الى الدينِ كحاجةِ الجسمِ الى الغذاء فكما أَنَّ الغذاءَ حياةُ الجسمِ وقِوامهُ فكذلك الدينُ حياةٌ للنفسِ لاتطيبُ الا به . وقد أَثبتَ التاريخُ ودلتْ الآثارُ على أَنَّ الدينَ مربيِّ الانسانِ ومرشدُ الامِ الى طرقِ المدنيةِ منذُ تكونتْ جمعياتُ البشرِ كما تقدمَ ذكرُه بدليلِ ملازمةِ الأديانِ للبشرِ منذُ عُرِفَ التاريخُ الى الآن حتى اننا لانرَى الآن امةً على وجهِ

الارضِ الاَّ ولها دينٌ معروفٌ وشريعةٌ خاصةٌ بها ولو وضعيةً اي من وضعِ البشر ومستنبطاتِ العقولِ لمَ ذلك ؟ لانَّ اللهَ سبحانه وتعالى اولُ مافطرَ الانسانَ على حبِّ المصلحةِ ومعرفةِ الخيرِ من الشرِّ انما فطرهُ بواسطةِ الاديانِ السماويةِ التي كانت تهبطُ من جانبِ الحقِّ تعالى على الرسلِ الكرام عليهمُ الصلاةُ والسلامُ وهؤلاءِ يبلغونها للناس ويدعونهم بها الى سبيلِ الرشدِ وطرقِ السعادةِ البشريةِ ليهتدُوا بها الى المصالحِ التي تقومُ بها حياتهمْ ويقوّمُ معوجَّ عملهمْ وينتظمُ في الحياةِ الدنيا شأنُهمْ ويظهرُ جوهرُ كمالِهم الذي يهيئهم للترقّي في سلّمِ المدنيةِ والتوصل الى السعادةِ الابديةِ والى هذا وردتْ الاشارةُ في القرآنِ الكريم بقوله تعالى

(ولقد أرسلنا رسلنا بالبيناتِ وانزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وانزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ) وقد بلغتْ هذه الآيةُ غايةَ الغاياتِ في الدلالةِ على رعايةِ الشرائعِ الالهيةِ لمصالحِ البشرِ الروحانيةِ والجثمانيةِ وما كلفَ به الرسلَ من ذلك في اقامةِ ماعوجَّ من اعمالِ الانسانِ بميزانِ الشرعِ وارجاعِهم الى الكتابِ بالبيناتِ ليقوموا بالقسطِ

أَيْ لتعتدلَ سائرُ أعمالِهم البدنيةِ والنفسيةِ انْ لم يتيسرْ ذلك بالبيناتِ وحكمِ الكتابِ فبالزجرِ بالقوةِ وهي الحديد

لهذا كان أساسُ التربيةِ البشريةِ هو الدينُ بدليلِ ما يشاهدُ في حالةِ الاقوامِ الذين لم يتمتعوا ولو بقليلٍ منْ انوارِ الاديانِ الالهيةِ منَ التقهقرِ في مضمارِ المدنيةِ والتوغلِ في مهامهِ الاخلاقِ الهمجيةِ كسكانِ اواسطِ افريقيا الآن

وما قلناهُ منْ أنَّا لا نرى امةً على وجهِ الارضِ الآن الاَّ ولها دينٌ معروفٌ ولو وضعياً برهانٌ ظاهرٌ على انَّ الانسانَ نشأَ وتربىَّ عقلاً وفطرةً بواسطةِ الأديانِ الالهيةِ وانما احتاج بعضُ الشعوبِ الى الرجوعِ للوضعِ العقليِّ لما اهملوا امرَ الدينِ وفقدتْ منهم اصولُ الشرائعِ الالهيةِ ثمَّ رأوْا انْ لاحياةَ الاَّ بالدينِ ولا اجتماعَ الاَّ على كلمتهِ فاضطروا الى الوضعِ ولوْ وضعاً فاسداً ممزوجاً بشيءٍ منْ آثارِ الدينِ الصحيحِ الذّي علقَ بافكارِهم او اختلطَ بعوائدِهم شيءٌ منه ولله في خلقهِ شؤُون

﴿ الدرسُ السادسُ ﴾

(جامعةُ الدين)

«(واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرقُوا)»

سبحانَ اللهِ ماأعظمَ مننَه . واعدلَ عملهَ . افترقتِ الشعوبُ فجمعهَا . وتغالبتِ الانفسُ فهذَّبها . وتباينتِ المقاصدُ فوحدَها وافترقتِ القلوبُ فالفَّ بينها فانضمتِ الاقوامُ الى ما شرعَ منْ شرائعَ ارتبطتْ بها مصالحُ الامم واتحدتْ كلمةُ الشعوبِ فذللوا المصاعبَ ومدوا ظلالَ العمرانِ وشيدوا الممالكَ وبالجملةِ وضحتْ لهم طرقُ السعادةِ فسلكوها وتوصلوا الى نعيمِ الحياةِ فتمتعوا به بنسبةِ ما شرعَ لكلِّ امةٍ منْ شرعٍ وافقَ حالةَ ترقيها وناسبَ مقتضىَ زمانِها (سنةَ اللهِ في الذينَ خلوْا منْ قبلُ ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلا)

عنايةٌ منَ اللهِ ما وفَّاها الامُ حقهاونعمٌ قصرواعنْ واجبِ شكرِها فدالتْ دولُهم وانطفأ نورُهم حينَ زاغت ابصارُهم عنِ الحقِ وافترقوا شيعا في الدينِ اندفعتْ معَ الاهواء اندفاعَ الغريقِ معَ تيارِ الماء فانحلتْ عراهم وافترقَ مجتمعُهم فانقلبوا

خاسرينَ ذلك بانهم كفروا بانعمِ اللهِ (فويلٌ للذينَ كفروا من يومهمُ الذي يوعدون)

ما كانَ اللهُ ليأخذَ قوما بجريرةِ آخرين و (لئلاَ يكونَ للناسِ على اللهِ حجةٌ) ما زال رحمةً منه بالامم يرسلُ رسله بالبيناتِ وينزلُ عليهمُ الشرائعَ بما يوافقُ الشؤونَ والمناسباتِ الطبيعيةَ عند كلِّ امةٍ وفي كلِّ زمانٍ حتى حالَ حالٌ وجاء زمانٌ استعدَّ فيه الانسانُ للكمالِ وآذنتْ ارادةُ اللهِ تعالى بمخاطبةِ العقلِ وارشادِهِ للسعادةِ التامةِ بالعلمِ اليقينِ فارسلَ نبيَّنا محمدا صلى الله عليه وسلم وانزلَ عليه قرآنا يكلفُ المؤمنينَ معرفةَ احكامهِ لطريقِ العلمِ فقال تعالى فيه (كتابٌ فصلتْ آياتهُ قرآنا عربياً لقومٍ يعلمون) وقررَ فيما قررَ منْ اسبابِ السعادةِ مبادئَ الاخاءِ الاسلامي تحتَ جامعةِ الدينِ فقال تعالى فيه « انما المؤمنون اخوة » وقال تعالى « واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعا ولا تفرقوا » ثم لما كانَ منْ شرطِ الاخاء الصحيحِ في جامعةِ الايمانِ اتحادُ سائرِ بنيهِ للذبِ عنْ شرائعهِ والانتصارِ له بخروجِ المؤمنِ عنْ نفسه وسائرِ ما يملكُ في سبيلِ نصرةِ الحقِ والايمانِ فقد قال الله تعالى في هذا (انَّ اللهَ اشترى من المؤمنين انفسهم

واموالهم بانَّ لهمُ الجنة)

بهذه الجامعةِ العظمى والرابطةِ المثلى تألفتْ قلوبُ الامم المتنافرةِ وتضافرتْ قوى الشعوبِ المتفرقةِ فاندفعَ الاسلامُ في اطرافِ البسيطِ الارضي يدوخُ اهلهُ الممالكَ وينشرون الدينَ واللغةَ والمدنيةَ ويبسطون نورَ العلم والتربيةِ والتهذيبِ كلُّ ذلك فعلوه في اقلَّ من قرنٍ بماذا؟ بجامعةِ الدينِ ورابطةِ الحقِّ اليقين

الدرسُ السابعُ

« معرفةُ الدينِ واجبةٌ »

(قلْ هذه سبيلي ادعو الى اللهِ على بصيرةٍ انا ومنِ اتبعني)

اذا كان الدينُ ضرورياً لازماً للاجتماع فمعرفةُ الدينِ ايضاً لازمةٌ لكلِ فردٍ منْ افرادِ اهلهِ بلا استثناءٍ ولا يكفي في هذه المعرفةِ كونُ المسلمِ مثلاً يعرفُ الاركانَ الخمسةَ للاسلامِ بل يلزمهُ انْ يكونَ على بصيرةٍ من دينهِ وعلمٍ ولو اجماليا (١) بشرائعه وسياستهِ فاذا سمعَ قارئا يقرأُ او قرأَ هو

(١) نريد بهذا العلم الاجمالي علم الصحابة لا العلم الاجمالي المصطلح عليه عند الاصوليين

قولهَ تعالى (يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأُولي الامر منكم) يتدبرُ معنىَ هذه الآيةِ لقولهِ تعالى « كتابٌ انزلناه اليك مباركٌ ليدبروا آياتهِ وليتذكرَ أُولوا الالباب » ويكونُ عَلى علمٍ ولوْ اجمالياً منْ فوائدِ هذه الطاعةِ وانهَ يترتبُ عليها مصلحةُ المؤمنين وترتبطُ بها سعادةُ المسلمين لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لايأمرُ عبادَه الا بالخيرِ والرسولُ كذلك لايأمر الاَّ بخيرٍ فوجبتِ الطاعةُ لهما فيما يأمران به وينهيان عنه لانهُ خيرٌ ومصلحةٌ للمؤمنين وكذلك ولي الامرِ انما وجبتْ له الطاعةُ منْ حيثُ وجبتْ للهِ وللرسولِ لكونهِ منفذاً لاوامرِ اللهِ والرسولِ وهي خيرٌ كما تقدمَ فالطاعةُ لهخيرٌ أيضاً. ولاجرم أنَّ العلمَ بالشيءِ منْ حيثُ انهخيرٌ يوجبُ الرغبةَ بهوالميلَ اليه فعلمُ المسلمينَ بهذه الطاعةِ أنهاخيرٌ يوجبُ تأصلَ الشعورِ في نفسِ كلِّ فردٍ منهم بأنَّ هذه الطاعةَ طاعةٌ واجبةٌ للهِ في جميعِ ما شرعَ من الشرعِ للمسلمين فوجبَ معها العملُ بكلِّ ماامرهم به منَ التمسكِ بالعقائدِ والمحافظةِ عَلى الدينِ والذودِ عن حياضِ الشريعةِ والقيامِ في وجهِ العدوِّ والاتحادِ عَلى كلمةِ الاسلامِ وغيرِ ذلك منَ المصالحِ المتوقفةِ عَلى الطاعة التي لا

سبيلَ الى اداءها الا بالعلمِ بها وما لا سبيلَ الى اداءِ الواجبِ الا به فهو واجبٌ فالطاعةُ واجبةٌ والعلمُ بها واجبٌ أيضاً وهكذا الحالُ في سائرِ ماجاءَ به الدينُ لأنَّ التوحيدَ الذي هو أولُ ركنٍ من اركانِ الدينِ انما دعانا اللهُ اليه منْ طريقِ العلمِ فقال تعالى (فاعلمْ أنه لا اله الا الله) فما بالكم ببقيةِ فروعِ الدينِ وأصولهِ لهذا كان العلمُ الاجماليُّ بالدينِ واجباً على جميعِ المسلمين وبمعرفةِ هذا الواجبِ عمل الصحابةُ الكرامُ بسائرِ ماجاءَ به القرآنُ وأمر بهِ نبيُّنا عليه الصلاةُ والسلامُ فمنْ لمْ يكنْ منهم على علمٍ تفصيليٍّ بأمرِ الدينِ كفاه العلمُ الاجماليُّ فدعا الى اللهِ على بصيرةٍ وعملَ بعلمٍ وبهذا وصفَ اللهُ المؤمنين واليه ارشدَهم في قرآنهِ العظيمِ فقال تعالى مخاطباً نبيَّه صلى الله عليه وسلم (قلْ هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرةٍ انا ومنِ اتبعني) وبهذا ألفَ الصحابةُ الكرامُ قلوبَ الامِ على الاسلامِ وعمموا الدينَ والسياسةَ واللغةَ بين الأنامِ فملؤا الامصارَ علما وضربوا دونَ الجهالة سداً فاخذوا بنواصي الامِ وانقادتْ لهم الشعوبُ وانحطتْ دونَ هممهمِ همُ قياصرةِ الرومِ وأكاسرةِ العجمِ ومرّتْ على ماأسسوه من قواعدِ العملِ بالعلمِ بحقيقةِ الدينِ اعوامٌ وأيامٌ

أتى بعدها خلفٌ انقلبَ الى الشهواتِ وقنعَ بآثارِ المجدِ وخلفٌ آخرُ أحرجه مرضُ القلوبِ فلجأَ الى الحشوِ في الدينِ والاكثارِ من القولِ على غيرِ يقينٍ ففرقوا وحدةَ الافكارِ وشتتوا اجزاءَ الامةِ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ألا ساء ما كانوا يصنعون

الدرسُ الثامنُ

الحكومةُ وضرورتها للاجتماع

(ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ لفسدتِ الارضُ)

قد علمتم لزومَ الدينِ والاجتماعِ فينبغي أن تعلموا أنَّ الملكَ ايضاً منْ لوازمِ الدينِ والاجتماعِ ولهذا جاءَ في الحديثِ النبويِّ الشريفِ (الاسلامُ والسلطانُ توأمانِ) وذلك لما سبقَ شرحهُ منْ انَّ مصالحَ البشرِ لا تتمُّ بالاجتماعِ وانَّ الانسانَ الواحدَ يستحيلُ انْ يقومَ بسائرِ وظائفِ الحياةِ البشرية الا اذا رجعَ الى مصافِّ بقيةِ الحيوانِ وليس هذا مرادَ اللهِ في الانسانِ . ومنَ المقررِ أنَّ الاجتماعَ لا يخلو منَ المنازعاتِ المفضيةِ الى تغالبِ القوى المتنازعةِ وتكالبها في ميدانِ الحياة

فاذا لم يمنع ذلك التغالبُ بقوةِ الوزاعِ الذي يناطُ به تنفيذُ أحكامِ الشرائعِ غلبَ القويُّ الضعيفَ فأهلكه وصدمَ الجليلُ الحقيرَ فأماته وفي هذا من الخللِ بنظامِ المجتمعاتِ مايؤدي الى فسادِها وتداعي اركانها ولهذا لما شرع اللهُ الشرائعَ للبشرِ جعل لها قوّاماهمُ الرسلُ الكرامُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ثمَّ الائمةُ والخلفاءُ من بعدِهم وفي قولهِ تعالى (ولولا دفعُ اللهِ الناسَ) الآيةَ اشارةٌ الى ذلك المعنى كما جاء في تفسيرِ الفخرِ الرازي الكبيرِ وخلاصتهُ انَّ الانبياءَ الذين انزلتْ عليهمُ تلك الشرائعُ همُ الذين يدفعُ اللهُ بهم الآفاتِ عن الخلقِ وانه كما لابدَّ في قطعِ الخصوماتِ في الدنيا من شريعةٍ فلابدَّ في تنفيذِ الشريعةِ من قوامٍ ولهذا قال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ (الاسلامُ اميرٌ والسلطانُ حارسٌ فما لا أميرَ له فهو مهزومٌ وما لا حارسَ له فهو ضائعٌ) اه

اذا تقررَ هذا فاعلموا انَّ الحكوماتِ ضروريةٌ للبشرِ ولا قوامَ لامةٍ أو حياةَ لشعبٍ الا بحكومةٍ او سلطانٍ فمن شأنِ الحكومةِ أن تهيمنَ على الشرائعِ والقوانينِ وتعملَ بها في ترتيبِ معيشةِ الشعبِ ونظامِ الامةِ وتنظرَ في سائرِ المصالحِ

التي تعودُ على الهيئةِ المحكومةِ بالخيرِ وتدفعُ عنها الشرَّ سواءٌ كان ذلك بالنظرِ الى علائقِها معَ الاممِ المجاورةِ كربطِ صلةِ الجوارِ وتسهيلِ اسبابِ التبادلِ في المنافعِ ووضعِ المعاهداتِ واعلانِ الحربِ وابرامِ الصلحِ ونحوِ ذلك من العلائقِ الجواريةِ او كان بالنظرِ الى شؤونِها الداخليةِ كتوزيعِ الجبايةِ وردِ الحقوقِ وحفظِ الأمنِ واقامةِ الحدودِ وتأمينِ السابلةِ وتسهيلِ طرقِ التجارةِ وغيرِ ذلك منْ موجباتِ الراحةِ والنظامِ في داخلِ المملكةِ

ويتفاوتُ نوعُ الحكوماتِ في كلِّ مملكةٍ بتفاوتِ العصورِ وتباينِ الاقطارِ فمنها الاستبداديُّ المطلقُ ومنها الدستوريُّ المعتدلُ ومنها الجمهوريُّ ولكلِّ حكومةٍ من هاته الحكوماتِ صبغةٌ خاصةٌ بها واحسنُها الصبغةُ الدستوريةُ المعتدلةُ لانها وسطٌ بين طرفيِ التفريطِ للصبغةِ الاستبداديةِ والافراطِ للصبغةِ الجمهوريةِ

﴿ الدرسُ التاسعُ ﴾
﴿ الحكوماتُ والاسلامُ ﴾

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسطِ شهداء لله ولو على انفسكم)

انَّ الحكومةَ انما هي جماعةٌ منَ الشعبِ يترشحون لتولي شؤُونِ الوظائفِ المناطِ بها ترتيبُ نظامِ الشعبِ والمحافظةِ على دواعي راحتهِ ورفاههِ فهمْ لايمتازون عنِ الكافةِ بخصيصةٍ من خصائصِ البشرِ أَو بمزيةٍ منْ مزايا الترفعِ عنْ امثالِهم منَ الناسِ الا بكونهم قوامَ الشريعةِ أَو القانونِ فتجبُ لهم على الناسِ الطاعةُ ماداموا في طاعةِ الشرعِ ليتسنَّى لهم تنفيذُ أَوامرِ الشريعةِ وتنظيمُ نظامِ الامةِ بايقافِ النفوسِ المتغالبةِ عندَ حدِّ القانونِ الذي هوَ سياجُ المجتمعاتِ ومناطُ راحةِ الشعوبِ . ولكنْ قضتْ سننُ الوجودِ الاجتماعيِّ ان يأتيَ زمانٌ على الانسانِ ينقادُ فيهِ للجهلِ المطلقِ بباريءِ الوجودِ فيعتقدُ بروحِ فعالةٍ بالحاكمِ او السلطانِ وينزلهُ منزلةَ المعبودِ في كثيرٍ منَ الاحيانِ كما يعتقدُه الصينيون بملكِهم الآنَ مثلاً وينعتونهُ لهذا السببِ بابنِ السماءِ وكما كان اعتقدَ ذلك بملوكِهم كثيرٌ

منَ الامم الخاليةِ فغلوا في تعظيمهم ومنْ دونهم منَ الحكامِ غلواً تأباهُ الاحلامُ ولما كانتْ تنزلُ الشرائعُ الالهيةُ وتمحو عنْ صفحاتِ العقولِ هذه الصورَ الباطلةَ والاعتقاداتِ العاطلةَ فينصرفُ الناسُ الى وجهِ الحقِّ ومحاسبةِ الوجدانِ ومعرفةِ الخالقِ الديانِ كانتْ تبقى مرتسمةً في مخيلاتهم آثارُ التعظيمِ المشعرِ بالتدني عنْ درجاتِ الحكامِ لمجردِ كونهم حكاماً فقط لالقصدِ وجهةِ العبوديةِ الاولى وكانتْ هذه الآثارُ تتجسمُ عندَ بعضِ الشعوبِ تارةً وتضعفُ اخرى بنسبةِ حالِ الحاكمِ وانصباغِ الحكومةِ بصبغةِ العدلِ او الاستبدادِ. ومما لاريبَ فيه انهُ ما افنى الامَ وقتلَ عواطفَ الشعوبِ فأضاعوا استقلالهم القوميَّ وقضوا على حياتهم الاجتماعيةِ الا ذلك الاعتقادُ الفاسدُ والخضوعُ المطلقُ لارادةِ افرادٍ قلَّ أن تقفَ ارادتُهم في سياسةِ الشعوبِ عندَ حدِّ الشريعةِ او القانونِ ولا تتجاوزُ بها غلبةَ الشهواتِ الى استعمالِ قوةِ القهرِ المانعةِ منْ ترقي النفوسِ البشريةِ في مراقي الكمالِ الطبيعي الذي لايتأتى الا باطلاقِ حريةِ العقلِ وتصريفهِ في انحاءِ الوجودِ لتناولِ اسرارِ الطبيعةِ المسخرةِ لنفعِ الانسان بارادةِ خالقِ الاكوانِ الكريمِ المنان

أثبتَ التاريخُ وقضتْ سننُ الاجتماعِ انَّ تجاوزَ الهيمنةِ العادلةِ عَلى قوانينِ الامم وشرائعها الى الحكمِ المطلقِ التابعِ لاغراضِ النفوسِ يقوضُ اركانَ الممالكِ ويدمرُ صروحَ العمرانِ وذلك لما فيه منَ الظلمِ المفسدِ لاخلاقِ الامةِ الداعي لتفشي أمراضِ الخيانةِ والمداهنةِ والمكر والتحيلِ الباعثِ على تسللِ خلقِ الظلمِ في سائرِ طبقاتِ الامةِ منْ اعلاها الى أدناها وذلك لفقدِ المناصحةِ بينَ الناسِ وقيامِ القوّةِ مقامَ الحقّ والسيفِ مقامَ القانونِ وناهيكَ بما ينشأُ عنْ هذا منْ اذلالِ النفوسِ الكريمةِ واعتيادِها على الرضوخِ للمهانةِ والضعةِ وفقدِها لاخلاقِ الشهامةِ والشممِ والشجاعةِ وايُّ نهايةٍ لهذا كلِّه سوى موتِ الأممِ وتداعي اركانِ الدولِ والعياذُ باللهِ تعالى

ولدفعِ هذا البلاءِ عنِ الشعوبِ اتى الاسلامُ مؤسساً عَلى العدلِ داعياً الى المناصحةِ بينَ المؤمنين منبهاً عَلى فوائدِ العدل تارةً وتقريعِ الظلمِ الذي هوثمرةُ الاستبدادِ أخرى تقويماً لاعوجاج الحكمِ الجائرِ عند الامم وتمهيداً لطريقِ السعادةِ بالاستقلالِ العقليّ الذي قامتْ عليهِ دعائمُ المدنيةِ الاسلاميةِ المبنيةِ عَلى اطلاقِ حريةِ الضمائرِ والمناصحةِ العامةِ بين المؤمنين كما يشيرُ

اليه قولُه تعالى (يا أيها الذين آمنو كونوا قوّامين بالقسطِ شهداءَ للهِ ولوْ علَى أنفسِكم) وهو امرٌ عامٌ يقضي علَى كلّ فردٍ منَ المؤمنين بتحري مصلحةِ الآخرين جهدَ الطاقةِ . وانّ أمةً تتكافلُ على مصالحِها العامةِ لأمةٌ حريةٌ بانْ تنقادلها الشعوبُ وتمهدَ امامها المسالكُ وتشيدَ بعدلِها الممالكُ وقدْ تحققَ للأمةِ الاسلاميةِ ذلك حينا منَ الدهرِ انقلب بعده المسلمون خاسرين لمّا نزغَ بينهم شيطانُ الدخيلِ فتفرقوا ونزعوامنازعَ وثنيتهِ الاولىَ وما خافوا واتقوا ففتحوا بذلك سبيلا للوهنِ علَى كلمتهم فتفرقتْ وعروةِ اجتماعهم فانحلتْ وعزهم فزال فانطبقَ عليهم قولُ ربِّ العالمين (انّ اللهَ لا يغيرُ مابقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسِهم)

الدرسُ العاشرُ

العدلُ في الاسلامِ

(كتابٌ أنزلناه اليك لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ الى النور)

بينما كان الامُ ترسفُ في قيودِ الاستبدادِ المطلقِ ويتخبطها شيطانُ الاستعبادِ الازرقِ فتتعثرُ باشباحِ القوةِ القاهرةِ وتهوي في ظلمات

العدمِ ارسلَ اللهُ تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم للأممِ بشريعةٍ لا تدعْ لسلطانِ القهرِ الجائرِ سبيلاً الى النفوسِ انْ توسرَ له وتهانَ بين يديه فوضعتْ للناسِ ميزانا لا ترجيحَ فيه لنفسٍ عَلى نفسٍ الاَّ بتقوى اللهِ واعطتْ للعقل حقَّ الاستقلالِ المطلقِ لينشطَ منْ اسرِ الاوهامِ ويخرجَ منَ الظلماتِ الى النورِ وفصلَ القرآنُ ذلك تفصيلا لا غاية بعده لمستزيدٍ لهذا قال الله تعالى فيه خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم (كتابٌ انزلناه اليك لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ الى النورِ) فبينَ هذا الكتابُ الكريمُ منْ آياتِ الحكمةِ البالغةِ بوجوب العدلِ في سائرِ الاعمالِ عَلى العمومِ وعدلِ الحكامِ عَلى الخصوصِ مافيه هدىً ورحمةً للعالمين و به ترتبطُ سعادةُ البشرِ اجمعين

ولما كانتْ أَهمُّ مراتبِ العدلِ ثلاثاً · العدلُ في الاحكامِ الالهيةِ فيما يرجعُ الى ردِّ الحقوقِ واقامةِ الحدودِ · والعدلُ في التساوي بالحقوقِ التي يشتركُ بها الناسُ وتقضي بها حريةُ العقل · والعدلُ في المعاملاتِ بين الناسِ بعضهم معَ بعضٍ كاجتنابِ الغشِّ والخيانةِ والمداهنةِ وغيرِ ذلك فقدْ لزمَ

انْ نبينَ لكم ماجاء به القرآنُ منْ ذلك علَى وجهِ الاجمالِ ونتكلمَ على كلِّ مرتبةٍ من هذه المراتبِ كلاماً عاماً مجملاً ولا يمنعنا هذا منْ انْ نتلوَ عليكم قبلَ البحثِ في هذه المراتبِ بعضَ ما جاءَ في القرآنِ منَ التنبيهِ على العدلِ فيما لا ينضمُّ الى هذه المراتبِ منْ سائرِ اعمالِ الانسانِ فمنْ ذلك قولهُ تعالى في وجوبِ العدلِ في المعيشةِ (ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً الى عنقِك ولا تبسطْها كلَّ البسطِ فتقعدَ ملوماً محسورا) وقولهُ تعالى في العدلِ بينَ النساءِ (فانْ خفتمْ الاّ تعدلوا فواحدةً) وقولهُ تعالى في العدلِ بالكرمِ (والذينَ اذا انفقوا لمْ يسرفوا ولمْ يقتُروا وكان بين ذلك قواما)

وقولهُ تعالى في العدلِ بالشجاعةِ (ولا تلقوا بايديكمْ الى التهلكةِ) وغيرُ ذلك كثيرٌ منَ الآياتِ المنبهةِ على الاعتدالِ في سائرِ الاعمالِ . والاعتدالُ كما لا يخفاكمْ هو العدلُ الذي هو اساسُ الفضائلِ وميزانُ السعادةِ القائمُ في هذا الوجودِ لخيرِ البشرِ وتهذيبِ النفوسِ بايقافها في وسطٍ منَ الاعمالِ بينَ طرفي الافراطِ وهو رذيلةٌ والتفريطِ وهو رذيلةٌ ايضاً والفضيلةُ هي الوسطُ وهو العدلُ

الدرسُ الحادي عشرَ

مراتبُ العدلِ

(المرتبةُ الاولى)

(وإذا حكمتمْ بينَ الناسِ انْ تحكموا بالعدلِ)

ما قامتْ الدولُ وامتدتْ ظلالُ العمرانِ واجتمعتْ كلمةُ الشعوبِ وتوثقتْ عرى الاجتماعِ الاَّ بالعدلِ فالعدلُ روحٌ ووجودُ الامم جثمانٌ فاذا فارقَ ذلكَ الروحَ هذا الجثمانُ انحلَّ وتطايرتْ اجزاؤُه في الفضاءِ ومحي اسمهُ منْ عالمِ الاجتماعِ

ولمَّا كانَ الانسانُ مفطوراً على الطمعِ وحبِ المزيدِ منْ كلِّ شيءٍ فقلَّ انْ يستأثرَ بالسلطةِ انسانٌ ويقفَ بها عندَ حدٍ محدودٍ الاَّ منْ عصمَ ربُّك لهذا ابى العدلُ انْ تساسَ الشعوبُ بسياسةٍ تضمنُ لهمْ بقاءَ الحياةِ المدنيةِ الاَّ بالحكوماتِ الشرعيةِ لا بسلطةِ القوةِ والقهرِ التي تسوقهم الى حيث لا يشعرونَ بالخطرِ الاَّ ساعةَ وقوعهم في مهاويهِ

وقدْ جاءتْ الشريعةُ الاسلاميةُ منافيةً لمبدإِ الحكوماتِ الماضيةِ المؤسسِ معظمها على اطلاقِ يدِ القوةِ في سياسةِ

الشعوبِ وذلك تمهيداً لسبلِ الترقيِّ بينَ الشعوبِ وتوطيداً لقاعدةِ العدلِ بينَ المسلمينَ على وجهٍ بلغَ منْ جلالةِ الوضعِ والترتيبِ ما تقصرُ دونهُ عقولُ البشرِ

جاءَ القرآنُ الكريمُ آمراً بالطاعةِ لاولياءِ الامرِ الى حدٍّ محدودٍ لا يتجاوزُ معنى الصلةِ العادلةِ بين الحاكمِ والمحكومِ ليتمكنَ بمقتضاها منْ تنفيذِ اوامرِ الشرعِ واقامةِ حدودِ اللهِ بشرطِ انْ لا تكونَ تلك الطاعةُ فيما يؤدّي الى الخروجِ عما امرَ بهِ الشارعُ ونهى عنهُ وذلك في قولهِ تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ واطيعوا الرسولَ وأولي الامرِ منكمْ) ولايخفى أنَّ قرنَ الطاعةِ لاولي الامرِ بالطاعةِ للهِ وللرسولِ دليلٌ على مافي ذلك منَ المصلحةِ للرعيةِ لانا ندركُ بالبداهةِ أنَّ الطاعةَ للهِ وللرسولِ محضُ نفعٍ راجعٍ لانفسنا فيما أمرَ بهِ ونهيا عنهُ كفعلِ الخيرِ وتركِ الشرِّ لهذا قال اللهُ تعالى (ما آتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكمْ عنهُ فانتهوا) وكذا ولي الامرِ فانهُ لمَّا كانَ مرتبطاً بالشريعةِ فيما يأمرُ بهِ والشريعةُ لا تأمرُ الاَّ بعدلٍ فقد وجبتْ لهُ الطاعةُ من حيثُ وجبتْ للهِ وللرسولِ . لهذا كانتِ الطاعةُ في الشريعةِ الاسلاميةِ منْ اهمِّ القواعدِ التي تأسستْ عليها دولُ الاسلامِ لاسيما طاعةُ

الامامِ العادلِ فانها ركنٌ من أركانِ الاسلامِ يجمعُ المسلمين تحتَ لواءٍ واحدٍ ويصونُ مجتمعَهم عن عبثِ التفرقِ شيعاً في الملكِ والدينِ ولكي لا تصرفَ مزايا هذه الطاعةِ في غيرِ وجوهِها النافعةِ كأن يتذرعَ بها الى شيءٍ من الظلمِ فقد أمرَ اللهُ تعالى الحكامَ بالعدلِ وحذَّرهم من عاقبةِ الظلمِ فقالَ تعالى (واذا حكمتم بين الناسِ أن تحكموا بالعدل) وقال تعالى (اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى) وقال تعالى في التحذيرِ (ومن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئك همُ الفاسقون)

ثمَّ لكي تصانَ قوانينُ الشرعِ وأحكامهُ عن العبثِ وتمشيَ على وتيرةِ العدلِ قرَّر القرآنُ قاعدةَ التكافلِ العامِّ على قيامِ شرائعِ الاسلامِ وذلك في قولهِ تعالى (ولتكنْ منكم امةٌ يدعونَ الى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ) ولكي تكونَ المسؤليةُ عامةً متبادلةً ويتناصرَ المسلمون على قاعدةِ التكافلِ العامِّ ولا يتخاذلوا قال تعالى (وأقيموا الدينَ ولا تتفرقوا فيهِ) وقال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ كلكم راعٍ وكلُّكم مسؤلٌ عن رعيتهِ . هذا الاسلامُ وهذا الدينُ القيمُ الذي شرعهُ اللهُ للناسِ ليخرجوا منَ الظلماتِ الى النورِ ومنَ العمى الى

الهدى وانما انعكس الامر مع المسلمين الآن لاخلالهم بقاعدة التكافل العام واشتغالهم باللغو واللهو عن حقيقة الاسلام وتفرقهم شيعاً في الملك والدين واعراضهم عن الحق اليقين (فمن بدله بعد ما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه) انتهى الكلام على الروابط ولنأت على ذكر المقومات

القسم الثالث في المقومات

﴿ الدرس الثانى عشر ﴾

« المرتبة الثانية »

﴿ الحرية والمساواة ﴾

(يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)

متى استقر العدل بين الناس على الوجه الذى ذكرناه وردت الحقوق وأقيمت الحدود وأمنت السبل تبسط الناس في مناحي الحضارة وجنحوا الى مد بساط العمران

وانما يتأتى لهم هذا بالتعاونِ والتناصرِ سيما اذا كانتْ الدهماءُ فرقاً غيرَ متناسقةٍ في المشاربِ ولا منتسقةٍ في عقدِ الوحدةِ الجنسيةِ أو الدينيةِ يحكمُ بعضُها الآخرينَ فأحوجُ مايكونون اليه التآلفُ والتحابُ ليتأتى لهمُ التناصرُ والتعاونُ ويندفعُ عنهمْ خطرُ التناكرِ وانما يندفعُ هذا الخطرُ اذا وجدَ العدلُ بالحريةِ والمساواةِ وبنيَ عليهما أساسُ التعارفِ المعنيُّ في قولهِ تعالى (ياايها الناسُ انا خلقناكمْ منْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكمْ شعوباً وقبائلَ لتعارفوا انَّ اكرمكم عندَ اللهِ اتقاكمْ) وفي قولِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ — لافضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ ولا لأبيضَ على اسودَ الا بالتقوى — وهذا مايعبرُ عنهُ بالحريةِ الشخصيةِ وهوَ كما أشرنا اليهِ ثاني مراتبِ العدلِ الثلاثِ في الاسلامِ وهو يرتبطُ بالمرتبةِ الاولى ارتباطاً يتمُّ بهِ محوُ آثارِ العبوديةِ لغيرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى منْ نفوسِ الخلقِ ويشعرُ بوجوبِ حسنِ المعاشرةِ والمخالطةِ والعدلِ بينَ الناسِ في الحقوقِ التي يشتركُ بها أبناءُ الوطنِ الواحدِ بلااستثناءٍ فلا يتفاخرُ بعضهم على بعضٍ أوْ يستأثرُ بعضهم بحقوقِ بعضٍ أو يستهينُ كبيرُهم بالصغيرِ ويتعدَّ غنيهم على الفقيرِ بلْ يكونُ حسنَ المعاملةِ

والمحافظةِ على الحقوقِ شاملا عاماً متبادلاً بينَ الناسِ من سائرِ الطبقاتِ ولا يستثنى من ذلك غيرُ المسلمِ اذا ضمَّ والمسلمُ في وطنٍ واحدٍ أو اشتركا على منفعةٍ واحدةٍ وقد كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم يتعاملُ مع يهودِ المدينةِ ويحسنُ مواطنتهم لنقتديَ بهِ في حسنِ معاملةِ الناسِ ومعاشرتهم وكانَ الصحابةُ الكرامُ رضوانُ اللهِ عليهم يتباعدونَ في بادئِ الامرِ عن مجاملةِ كفارِ قريشٍ ولو كانوا من ذوي قرباهم فنبههمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى الى انْ ليسَ في معاملتهم والاحسانِ اليهمْ بأسٌ ورغبهمْ بانْ يبروهمْ ويقسطوا اليهمْ في قولهِ تعالى (لاينهاكمُ اللهُ عنِ الذين لمْ يقاتلوكمْ في الدينِ ولمْ يخرجوكمْ من ديارِكمْ انْ تبرّوهمْ وتقسطوا اليهمْ انَّ اللهَ يحبُّ المقسطين) فحسنُ معاملةِ الناسِ ومجاملتهمْ واعتبارُ كونهمِ جسماً واحداً يحيا بحياةِ أعضائهِ امرٌ قررتهُ الشريعةُ الاسلاميةُ وجاءَ بهِ القرآنُ فينبغي انْ تعلموهُ ولوْ لمْ يكنْ فيهِ منَ الامرِ بتبادلِ حسنِ المعاملةِ غيرُ ماتقدمَ وغيرُ قولهِ تعالى (يأيها الذين آمنو لا يسخرْ قومٌ منْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى انْ يكنَّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب) لكفى

بهِ موعظةٌ وذكرى للمؤمنين .

﴿ الدرسُ الثالثَ عشر ﴾

﴿ تعريفُ الحريةِ ﴾

(وكذلكَ جعلناكم أُمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناسِ
ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيدا)

الحرّيةُ منْ حيثُ هيَ هيَ استقلالُ العقلِ والارادةِ وانطلاقُ الانسانِ منْ قيدِ العبوديةِ لايِّ شيءٍ الاَّ اللهَ سبحانهُ وتعالىَ فهيَ واجبةٌ لهُ سبحانهُ لانهُ خالقُ الانسانِ وواهبُ العقلِ وقدْ قسموا الحريةَ بالتعريفِ الاعمِّ الىَ قسمينِ الحريةُ العموميةُ والحريةُ الشخصيةُ . فأمَّا الحريةُ العموميةُ فهيَ تكافؤُ الامةِ بالحقِّ في مشاركةِ الحكومةِ بالرأيِ وتكافلُها على قيامِ الشرائعِ والقوانينِ حتىَّ لايعبثُ بهَا عابثٌ او يتصرفُ على غيرِ وجهِها المقصودِ تبعاً لاغراضِ النفوسِ وغلبةِ الشهواتِ عندَ الحكامِ وقدْ قررتْها الشريعةُ الاسلاميةُ وجاءَ بهَا القرآنُ كما رأيتمْ في (الدرسِ الحادي عشرَ) ولهَا منَ الاثرِ العظيمِ في ترقيِّ الاممِ ونشرِ لواءِ العمرانِ ما يشاهدُ عندَ الحكوماتِ الاوربيةِ المعتدلةِ

الآنَ وما بلغَ بالمسلمينَ في الصدرِ الاولِ مبلغاً من القوّةِ والمدنيةِ والمجدِ يقفُ دونه النظرُ حائراً والانسانُ مقراً بفضلِ شريعةٍ وضعتْ هذهِ القاعدةَ منذُ ثلاثةَ عشرَ قرناً للمسلمينَ ولمْ يتوصلْ اليها غيرُهم منَ الاممِ الاّ في هذهِ القرونِ الاخيرةِ بعدَ مكافحاتٍ شابتْ لها نواصي الولدانِ وانصبغتْ هامةُ المغربِ بنجيعِ الانسانِ

واما الحريةُ الشخصيةُ فهيَ عبارةٌ عنْ مبدإِ المساواةِ الذي مرَّ ذكرُه وفيهِ امنَ الانسانُ علَى نفسهِ وعرضهِ ومالهِ وتمتعهِ بسائرِ حقوقهِ الشخصيةِ التي تخولُها لهُ طبيعةُ الاجتماعِ باعتبارِ كونهِ عضواً عاملاً فيهِ وقدْ توسعَ بهذا المبدإِ دعاةُ الحريةِ الجديدةِ في هذا العصرِ منَ الغربيينَ فقالوا وللانسانِ انْ يعملَ ما شاءَ بارادتهِ علَى شرطِ انْ لا يتعدَى ضررُه الى سواهُ وهوَ توسعٌ ينافي مبدأَ العدلِ في الحريةِ الاسلاميةِ لما عقبهُ منَ الافراطِ الذي دعا الى التفريطِ بالفضيلةِ في الغربِ حتى انطلقتْ النفوسُ في ميدانِ الشرورِ وانغمستْ في حمأةِ الرذائلِ تحتَ اسمِ الحريةِ وبقيدِ انْ لا يتعدَى ضررُ الانسانِ الى سواهُ وكيفَ لا يتعدَّى ضررُ منْ يحملُ امراضَ الفسقِ

والفجورِ والفاحشةِ وسائرِ انواعِ المنكرِ ويمشي بها متهتكاً تحتَ اسمِ الحريةِ وكلُّ هذهِ امراضٌ وبائيةٌ ليسَ اسرعَ من تفشي ضررِها في ربوعِ المدنيةِ وفتكهِ فتكاً ذريعاً في الانسانِ ولقدْ احسَّ الاوروبيونَ ببلاءِ الافراطِ بهذهِ الحريةِ وما تأتَّى عنها من المضارِّ التي اقلُّها انتشارُ الفوضى والاشتراكيةِ في ربوعِ المدنيةِ وتهديدُها لها بالخرابِ والتدميرِ واخذوا يعملونَ الرأيَ في ايجادِ طريقٍ للخلاصِ منْ هذا البلاءِ وأنى يهتدونَ الاَّ بالدينِ الاسلاميِّ المبينِ المبنيِّ علَى الاعتدالِ في كلِّ شيءٍ المرشدِ الى سائرِ الفضائلِ والكمالاتِ التي ترتبطُ بها سعادةُ البشرِ ويقومُ بها التمدنُ الحقيقيُّ للشعوبِ . اللهمَّ انا نحمدُك ونشكرُك علَى انْ جعلتَ هذهِ الامةَ الاسلاميةَ امةً وسطاً (١) ليشهدُوا علَى الناسِ ويكونَ الرسولُ عليهمْ شهيداً ونسألُكَ انْ ترشدَها للعملِ بقرآنِك واتباعِ سنةِ نبيك صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لتعودَ علَى بدئِها وترجعَ ذاهبَ مجدِها الذي انما ذهبَ لما فرطتْ في جنبِ اللهِ ولا حولَ ولا قوةَ الاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ

(١) اي عدلاً كما في تفسيرِ الفخرِ وغيرِه

﴿ الدرسُ الرابعَ عشرَ ﴾

﴿ الحريةُ الاسلاميةُ والحريةُ الغربيةُ وهلْ يستويان ﴾

(قلْ هلْ يستوِي الاعمى والبصيرُ امْ هلْ تستوى الظلماتُ والنورُ)

علمتمُ انَّ الحريةَ هيَ استقلالُ العقلِ وانطلاقُ الانسانِ منْ قيودِ الاستعبادِ المطلقِ ومتى أَخذتْ الحريةُ منْ ذلكَ وسطًا بينَ طرفيِ الافراطِ والتفريطِ حملتْ النفوسَ علَى الغيرةِ ونبهتْ فيها حبَّ العزةِ والكرامةِ . والنفسُ الكريمةُ تأبى الاحجامَ وتنشأُ علَى الاقدامِ فتطلبُ جلائلَ الاعمالِ وتتنكبُ طرقَ الدنايا وتطرحُ راحةَ الاخلادِ الى المسكنةِ والذلِّ ولا يصدرُ عنها أَثرٌ منْ آثارِ الحريةِ الاَّ مسبوقًا بالروية مقرونًا بالفضيلةِ دالاً علَى الثباتِ لما تأصلَ فيها منَ الرزانةِ الناشئةِ عنْ عزةِ النفسِ اذْ منْ توابعِ العزةِ الرزانةُ والثباتُ وهما حياةُ الاممِ ومنبعثُ مجدِ الانسانِ وعكسُهما الرعونةُ والطيشُ وهذانِ الخلقانِ يلازمانِ طرفَ الافراطِ في الحريةِ كما يلازمُ طرفهُ الآخرَ وهوَ التفريطُ الذلُّ والمسكنةُ والوسطُ

بينهما هو الرزانة والثبات كما تقدم ولنضرب لكم مثلاً بعض الشعوب الاوربية الذين تناهى عندهم الآن الافراط في الحرية فقد يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند كل حادث سياسي مثلاً مالا يصدر عن الشعوب المعتدلة بالحرية الذين اذا فتحت لهم الممالك او صبت عليهم الصواعق فلا نسمع لهم الا همهمة أو حسيساً

وأما المفرطون في الحرية فمثلهم مثل الامم الشرقية التي فقدت مزايا الاستقلال العقلي وسيقت بعصا القهر سوق الانعام وناهيك به ذلاً قاتلاً للنفوس مميتاً للهمم مفقداً للاقدام نشاهده الآن بالعيان لهذا جاء الاسلام هادماً لاركان الاستبداد مرشداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة النفس الداعية الى الرزانة والثبات الباعثين على العمل الممهد لسبل المجد والسودد . وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً لم تنله امة من الامم حتى بلغوا من العزة مكاناً يكفي في التنبيه اليه قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وانما انحطوا الآن الى درك الضعة لما علمتموه من ان العزة ملازمة للحرية وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا

اولياءهم ارباباً من دونِ اللهِ ومن يدعُ مع اللهِ الهاً آخرَ فحسابه على ربه (وان تجدَ لهُ من دونِ اللهِ ولياً ولا نصيراً) وبالاجمالِ فالحريةُ حياةُ الامم ودعامةُ التمدنِ واساسُ الترقي العقليّ في هذا الوجودِ البشري وشرطها الاعتدالُ وبهِ جاءَ الاسلامُ وبهما عملَ المسلمونَ زماناً قامت لهم بهِ الدولُ وشيدوا دعائمَ العمرانِ ونشروا رايةَ العلمِ واخذوا بجماعِ القوةِ فهدموا بها بنيانَ الاستعبادِ وحطموا صروحَ الاستبدادِ فملكوا قلوبَ البشرِ واجتمعَ تحتَ رايتهم الشعوبُ على اختلافِ عناصرهم وتباينِ مشاربهم متهالكينَ في سبيلِ الوحدةِ الاسلاميةِ التي هي اسُّ الحريةِ البشريةِ المعنيةِ في قولِ الرسولِ الاكرمِ والنبيِّ الاعظمِ صلى اللهُ عليه وسلمَّ «لافضل لعربيٍّ على عجميٍّ ولا لابيضَ على اسودَ الاَّ بالتقوى» بهذه الحريةِ قامَ الاسلامُ وساسَ المسلمون مئاتِ الملايين من البشرِ لايميزون في الحقِّ نحلةً عن نحلةٍ ولا كبيراً عن صغيرٍ ولاميراً عن حقيرٍ بل كلُّهم في الحقوقِ سواءٌ وللحريةِ ابناءٌ وبلغَ من شعورِ المؤمنين يومئذٍ بفضلِ هذه الحريةِ انَّ يهودياً ادّعى امامَ عمرَ بنِ الخطابِ رضي اللهُ تعالى عنهُ على عليِّ بنِ ابي طالبٍ رضي اللهُ تعالى

عنهُ بحقٍ لهُ قبلهُ وكانَ عليٌّ بحضرةِ عمرَ فقالَ لهُ قمْ يا ابا الحسن ساوِ خصمك فظهرَ على وجهِ عليٍّ كرمَ اللهُ وجههاثرُ الغيظِ ثمَّ قامَ وجلسَ في جانبِ خصمهِ وبعدانتهاءِ المحاكمةِ قال الخليفةُ عمرُ لعليٍّ رضيَ اللهُ تعالى عنهما لعلك اغتظتَ منْ قولي لكَ قم يا ابا الحسنِ ساوِ خصمك قالَ لاَ وانما اغتظتُ لانكَ كنيتني امامَ خصمي فكان ينبغي انْ تقولَ قمْ يا عليُّ ساوِ خصمك وقدْ كان النداءُ بالكنيةِ عندَ العربِ من علائم التفخيم

بلغَ الشعورُ بفضلِ الحريةِ والمساواةِ عندَ المؤمنِ على عهدِ الحريةِ الاسلاميةِ انْ لايقبلَ التفخيمَ مهما كانَ عظيماً في قومهِ شريفاً في نفسه كعليِّ بن ابي طالبٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ في موقفٍ لايسودُ فيهِ الاَّ العدلُ ولاَ ينظرُ فيهِ الاَّ للحقِّ فليتَ شعري ماذا يقولُ المنصفون منْ دعاةِ الحريةِ الاوربيةِ وأنصارِ المدنيةِ الغربيةِ في هذا العصرِ عنْ حريتهمُ الجديدةِ ودعواهمُ العريضةِ هل فيها شيءٌ منْ هذا العدلِ ؟ هلْ قطعتْ قيودَ الاستبدادِ ؟ هل تساوَى فيها بقيةُ الشعوبِ الخاضعينَ للسيطرةِ الاوربيةِ وعلَى الاخصِّ المسلمون منهم كما كان اليهوديُّ والنصرانيُّ والعربيُّ والعجميُّ والابيضُ والاسودُ

سواءً في الحقوقِ على عهدِ الحريةِ الاسلاميةِ وابانِ السطوةِ العربيةِ ؟

لا لعمرُ الحقِّ . لا يقولُ ذلكَ المنصفونَ لانَّ العيانَ اعظمُ شاهدٍ وبرهانٍ على انَّ الحريةَ الاسلاميةَ والحريةَ الغربيةَ لا يستويانِ (قلْ هلْ يستوي الاعمى والبصيرُ امْ هلْ تستوي الظلماتُ والنورُ) وكيف يستوي مابنيَ على اساسِ الدينِ الاسلاميِّ المتينِ والنهجِ القرآنيِّ القويمِ وما بنيَ على التصنعِ والتلبيسِ التابعِ لاغراضِ النفوسِ .

فاللهمَّ انَّ حريةً كحريةِ الغربيينَ الآنَ يفرقُ فيها بينَ الشرقيِّ والغربيِّ والمسلمِ والنصرانيِّ بلْ والبروتستانتيِّ والكاثوليكي والحقُّ فيها للقوي يسحقُ بقوتهِ الضعيفَ ويستهينُ بحقوقِ منْ عداهُ لحريةٌ حريةٌ بالنبذِ والاستهجانِ لانها استعبادٌ تأباه الانسانيةُ والانسانُ ولا ينطبق على قانونِ الحريةِ في كلِّ عصرٍ وزمانٍ

—«✲»—

﴿ الدرسُ الخامسَ عشرَ ﴾

﴿ المرتبةُ الثالثةُ ﴾

﴿ العدلُ في المعاملةِ معَ الناسِ ﴾

(اعدلوا هوَ اقربُ للتقوى)

علمتمْ مما سبقَ بيانهُ انَّ العدلَ في الشريعةِ الاسلاميةِ مطلوبٌ في سائرِ اعمالِ الانسانِ وأنَّ اهمَّ مراتبِ العدلِ ثلاثٌ استوفينا الكلامَ على مرتبتينِ منهنَّ وها نحنُ نتكلمُ على المرتبةِ الثالثةِ وهيَ العدلُ في معاملةِ الناسِ بعضهم معَ بعضٍ فنقولُ

العدلُ في معاملةِ الناسِ بعضهم معَ بعضٍ يكونُ في أمرينِ بالفعلِ واللسانِ والمرادُ منَ الامرِ الاولِ اجتنابُ الغشِّ في تبادلِ المنافعِ التجاريةِ كالبيعِ والشراءِ ومنَ الامرِ الثانيِ اجتنابُ الغشِّ باللسانِ وفيهِ المداهنةُ والخيانةُ والتغريرُ وغيرُ ذلكَ منْ انواعِ الغشِّ الذميمِ التي هيَ أمراضٌ تنهكُ قوى المجتمعاتِ وتذهبُ بحياةِ الشعوبِ والمقدمُ عليها ظالمٌ يضرُّ بنفسهِ وبأبناءِ جنسهِ ولنتكلمْ قليلاً على الامرِ الاولِ ثم نأتي

بعدَه على الامرِ الثاني كلُّ ذلكَ بطريقِ الاجمالِ الذي يناسبُ المقامَ اذْ دروسنا لا تسعُ التفصيلَ بالتمامِ

لا يخفى أنَّ تبادلَ المنافعِ التجاريةِ بينَ الناسِ هو عبارةٌ عنْ عوضٍ يستحقُّه المستعيضُ في نظيرِ عوضٍ يستحقُّه المعيضُ كالتاجرِ اذا باعكَ من الحريرِ مقداراً معلوماً فانهُ انما يبيعكَه في نظيرِ مقدارٍ من الدراهمِ معلومٍ يستحقُّه قبلكَ كما تستحقُّ انتَ قبلَه ذلكَ المقدارَ من الحريرِ في نظيرِ دراهمكَ استحقاقاً حتمياً يوجبُه الشرعُ وتقضي بهِ سنةُ الوجودِ البشري القائمِ على اساسِ تبادلِ المنافعِ التي هيَ نتيجةُ العملِ المتبادلِ ايضاً ودعامةُ الحياةِ الاجتماعيةِ بينَ اصنافِ الانسانِ . ويشترطُ في هذا التبادلِ التعادلُ في القيمةِ وان اختلفَ المقدارُ فمنْ اخلَّ من المتبادلينَ بهذا التعادلِ بأن غشَّ احدُهما صاحبَه بأصلِ القيمةِ كبخسِ الوزنِ وتغييرِ النوعِ بأدنى منهُ أوْ عمدَ الآخرُ الى دفعِ الثمنِ نقوداً زائفةً فقدْ تعمدَ تنقيصَ العوضِ المستحقِ قبلَه ومنْ تعمدَ ذلكَ فهوَ ظالمٌ غاشٌ بلْ سارقٌ محتالٌ لا فرقَ بينَه وبينَ اللصِّ الاَّ بكونِ هذا مرتكبَ جنايةً ربما دفعَه اليها الاحتياجُ والفقرُ وذلكَ مرتكبَ جنايةً لمْ يدفعهُ

اليها سوى طمعِ النفسِ وحبّها للظلمِ وهوَ ظلمٌ مذمومٌ وعملٌ مضرٌّ هادمٌ لاعظمِ ركنٍ منْ اركانِ الاجتماعِ المدنيِ وهوَ الثقةُ التي يتوقفُ عليها نظامُ سيرِ المعاملاتِ الدنيويةِ فاذا دخلَ الغشُّ في هذهِ المعاملاتِ فقدتْ الثقةُ منْ نفوسِ الناسِ بعضهم ببعضٍ فيقفُ لذلك دولابُ التجارةِ فتبورُ الصنائعُ وتقلُّ المكاسبُ فيحتالُ الناسُ علَى اسبابِ المعيشةِ ويتهالكونَ علَى تحصيلِ القوتِ منْ غيرِ طرقهِ المشروعةِ فتفسدُ اخلاقُ الامةِ وتنحطُّ لقلةِ العملِ مداركُها وينتهي ذلكَ بضعفِ قوتِها وتفريقِ مجتمعِها بلْ وفقدِ حريتِها واستقلالِها وتحكمِ يدِ الاجنبيِ فيها كما نشاهدُ ذلك في المشرقِ الآنَ فلا يفتقرُ لاقامةِ الدليلِ والبرهانِ لهذا جاءَ الشرعُ الاسلاميُّ آمراً بالعدلِ في المعاملةِ ناهياً عنْ الغشِّ فيها باشدِ الزواجرِ فقالَ اللهُ تعالى في القرآنِ الكريمِ (وزنوا بالقسطاسِ المستقيمِ) وقالَ تعالى في معرضِ الزجرِ (ويلٌ للمطففينَ الذينَ اذا اكتالوُ علَى الناسِ يستوفونَ واذا كالوُهم أو وزنوهم يخسرون) وقالَ تعالى (ولاَ تأكلوا أموالكم بينكم بالباطلِ) وقالَ تعالى (أوفوا المكيالَ والميزانَ بالقسطِ ولاَ تبخسوا الناسَ اشياءَهم) وقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (ليس

منّا منْ غشّ) وهذا يفيدُ خروجَ الغاشّ منْ عدادِ المؤمنينَ والعياذُ باللهِ تعالى وفيهِ من المبالغةِ في الزجرِ عنِ الغشّ اعظمُ عبرةٍ للمؤمنينَ الذينَ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ احسنه والعاقبةُ للمتقين . لهذا وجبَ اجتنابُ الغشّ في المعاملةِ بسائرِ انواعهِ لماَ فيهِ منَ الضررِ على النـاسِ بالعمومِ وعلى الغاشّ بالخصوصِ لماَ انّ ثروةَ الفردِ الواحدِ في كلّ مجتمعٍ انما ترتبطُ بثروةِ الباقينَ فمتى قلتْ الثروةُ عند المجموعِ فانها بالطبعِ تقلُّ عندَ الفردِ ومنْ اسبابِ فقدِ الثروةِ كما تقدمَ تفشّي مرضِ الغشّ بينَ الامةِ واحسنُ دواءٍ لهُ محاسبةُ المرءِ نفسهُ في معاملتهِ معَ الناسِ ومراقبتهِ اللهَ تعالى في ذلكَ بحيثُ يكونُ لهُ من نفسهِ داعٍ يدعوه الى تقوى اللهِ ومعاملةِ خلقهِ بالعدلِ عملاً بقولهِ تعالى (اعدلوا هو أقربُ للتقوى)

﴿ الدرسُ السادسَ عشرَ ﴾

﴿ المداهنةُ ﴾

(والذينَ يمكرون السيئاتِ لهمْ عذابٌ شديدٌ)

قلنا انّ اجتنابَ الغشّ باللسانِ هوَ منْ جملةِ العدلِ في

المعاملةِ ومنْ ذلك المداهنةُ والخيانةُ والتغريرُ فانَّ هذه أُمورٌ اكثرُ ماتكونُ للغشِّ باللسانِ وصاحبُها انما يمكرُ بهذا الغشِّ مكراً يحاولُ بهِ جرَّ مغنمٍ لنفسهِ وانْ اضرَّ بسواهُ (والذينَ يمكرونَ السيئاتِ لهمْ عذابٌ شديدٌ)

وأولُ تلكَ السيئاتِ المداهنةُ وهيَ نوعٌ منَ النفاقِ أوِ النفاقُ عينهُ والغشُّ فيها هوَ منْ جهةِ مايرادُ بها منَ التملقِ الكاذبِ ومدحِ الانسانِ بما ليسَ فيهِ استرضاءً لهُ واستجلاباً لخاطرهِ وفي هذا منَ الضررِ مايربُو على كلِّ ضررٍ سواهُ اذْ أنهُ يوجبُ استشعارُ المداهنِ (بفتح الهاء) الكمالَ بنفسهِ واغضاءَهُ عنْ كلِّ نقيصةٍ فيهِ ربما اذا علمها منْ نفسهِ بادرَ الى ازالتها والتحولِ عنها الى ماهوَ اكملُ منها . وفضلاً عنْ هذا فانَّ سرورَ المرءِ بالمداهنةِ ربَّما يؤدّيهِ الى اعتبارها حسنةً في نفسها فيداهنُ منْ هوَ أعلى منهُ وهكذا تتسلسلُ هذهِ الرذيلةُ في سائرِ طبقاتِ الامةِ حتى يعمُّ بها البلاءُ وتفسدُ بسببها الاخلاقُ وربما بلغتْ المداهنةُ عند بعضِ الطبقاتِ أحياناً اقصى درجاتِ النفاقِ فيتقربُ بها الصغيرُ الى الكبيرِ ولوْ بانْ يضرَّ اهلهُ وولدهُ اوْ بني وطنهِ في سبيلِ استرضاءِ المنافقِ لهُ وفي هذا منَ الغلوِّ في

الدناءةِ والمغالاةِ في الغشِّ مايفضي أحياناً الى ايغارِ الصدورِ ووقوعِ الفتورِ بينَ الاميرِ والمأمورِ والحاكمِ والمحكومِ فتنحلُّ عروةُ التآليفِ ويشوشُ نظامُ الاجتماعِ كلُّ ذلك بعبثِ المنافقينَ وغشِّ المداهنينَ الذينَ انذرهمُ اللهُ بالخزيِ في الدنيا والعذابِ في الآخرة وحسبهم منْ ذلكَ الذلِّ والعارِ قولُه تعالىَ (انَّ المنافقينَ في الدركِ الاسفلِ منَ النارِ) فينبغي على كلِّ مؤمنٍ باللهِ خائفٍ منْ عقابِه وكلِّ محبٍّ لوطنِه حريصٍ على شرفِه اجتنابُ المداهنةِ والنفاقِ لانهما غشٌّ لايرضاهُ الانسانُ الكاملُ وتأباهُ المروءةُ كما ينبغي الاحتراسُ منَ المداهنينَ وتداركُ شرهِم عنْ انْ يسريَ في الامةِ بعدواهُ الخبيثةِ بنبذهِم نبذَ النواةِ وعدمِ الرضاءِ بغشِّهم في أيِّ حالٍ منَ الحالاتِ اقتداءً بالصحابةِ الكرامِ الذينَ بهِمْ قامَ الاسلامُ وبعملهِمْ يقتدي المؤمنونَ فقدْ ذكرَ الامامُ الغزاليِ في الاحياءِ انهُ قيلَ لبعضِ الصحابةِ لا يزالُ الناسُ بخيرٍ مابقاكَ اللهُ فيهِم فغضبَ وقالَ انيِّ لاحسبُكَ عراقياً(١) وانَّ بعضَ الخلفاءِ الراشدينَ سألَ رجلاً عنْ شيءٍ فقالَ انتَ ياأميرَ المؤمنينَ خيرٌ منيِّ وأعلمُ فغضبَ وقالَ

(١) اشارة الى ما كان مشهوراً يومئذ عن أهل العراق من النفاق

انيّ لم آمرك بان تزكيني . وانها والله اشيمٌ شماءُ ونفوسٌ تأبى أمثالَ هذه النقائص وجديرٌ بكلّ مؤمنِ القلبِ طاهرِ الخلقِ أنْ يعرفَ منْ نفسه مالا يحتاجُ للعلمِ بهِ منْ سواهُ

﴿ الدرسُ السابعَ عشرَ ﴾

﴿ الخيانةُ والتغريرُ ﴾

(انّ الله لا يحبُّ منْ كانَ خواناً أثيماً)

كلُّ منْ غشَّ باللسانِ لأمرٍ يريدُ بهِ النفعَ منْ حيثُ يضرُّ بسواهُ فهوَ خائنٌ كالمداهنِ والمغرر وقدعلمتم منْ مضارّ المداهنةِ مافيهِ الكفايةُ . وأمّا التغريرُ فأنواعه كثيرةٌ . منها أن يغررَ البائعُ بالمشتري بسلعةٍ يصفُها لهُ بأنها منْ اجودِ ماتكونُ منْ نوعِها مثلاً اغراءً لهُ على اخذِها وتكونُ هيَ دنيئة رديئةً في الاصلِ وانما قصدَ المغررُ بيعها بثمنِ الجيدةِ ولوْ أضرَّ ذلك بالمشتري . ومنها أن يحسنَ لك الانسانُ عملاً ربما كانَ في نفسه قبيحاً وانما هوَ يحسنه لك ليكونَ لهُ منْ ورائه نفعٌ ذاتيٌ فلا يبالي أضرَّ ذلك العملُ بك اوْ نفعَ . ومنها (وهوَ اشدُّ انواعِ التغريرِ ظلماً واشرُّها عاقبةً) غشُّ الامةِ بما يضلل أفكارَها

أو يدسُّ في كتبِها من الاضاليلِ المنافيةِ لقواعدِ الدينِ الصحيحِ القاتلةِ لاحساساتِ الناسِ المشوشةِ على العقلِ وأنواعُها كثيرةٌ وانما هيَ بدعٌ ابتدعها في الدينِ أُناسٌ لم يريدوا بها وجهَ اللهِ بل عرضَ الدنيا وهم عنِ الآخرةِ هم غافلون . والتاريخُ اعظمُ شاهدٍ على ذلكَ ولكنَّ اكثرَ الناسِ لايشعرُون (وإنهم ليصدونهم عنِ السبيلِ ويحسبونَ أنهم مهتدون) ومهما بحثنا عن اسبابِ التقهقرِ العقليِّ والدينيِّ في الامةِ الاسلاميةِ لانجدُ لهُ سبباً أعظمَ منَ التغريرِ الذي اثرَ آثاراً قبيحةً في عقولِ الامةِ وأهمها الاعتقادُ بالجبرِ أومايقربُ منه لتجريدِ الانسانِ عن كلِّ ارادةٍ واختيارٍ مما ينافي حكمةَ اللهِ تعالى في خلقِ الانسانِ وتفضيلهِ بالعقلِ والعلمِ والارادةِ على سائرِ الحيوانِ لاسيماوانَّ اللهَ تعالى قالَ (علمَ بالقلمِ علمَ الانسانَ مالمْ يعلمْ) ولبيانِ تشريفِ الانسانِ بذلكَ قالَ تعالى (ولقدْ كرّمنا بني آدمَ وحملناهمْ في البرِ والبحرِ ورزقناهمْ منَ الطيباتِ وفضلناهمْ على كثيرٍ ممنْ خلقنا تفضيلا) فكيفَ يمنحُ اللهُ سبحانهُ وتعالى الانسانَ قوةَ العلمِ والتفضيلِ على سائرِ الحيوانِ ويشرعُ لهُ الشرائعَ والاديانَ ويكلفهُ للعبادةِ ثمَّ يسلبهُ الارادةَ . اللهمَّ انَّ أُناساً يضللونَ عبادَكَ بمثلِ هذا

التضليلِ بعدَ انْ قلتَ (وفي الارضِ آياتٌ للموقنينَ وفي انفسِكم افلاَ تبصرونَ) لاناسٌ ظالمينَ لانفسهم غاشّينَ للناسِ (وسيعلمُ الذينَ ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون)

لهذا ينبغي عَلَى العاقلِ ان لايبادرَ الى كلِّ مايسمعهُ أوْ يراهُ فيحملهُ عَلَى محملِ الصدقِ بلْ يمعنَ النظرَ ويبحثَ عنِ الدليلِ في كلِّ شيءٍ يردُ عَلَى العقلِ كيْ لايغررَ بنفسهِ ويلقيها فيما لا تحسنُ عقباهُ اذِ العقلُ آلةٌ تتناولُ ماثبتَ بالحسِّ والبرهانِ وتتركُ ماوراءَ ذلكَ لعلمِ الخالقِ الديانِ ولهذا جاءَ في قولهِ تعالى (وماَ آتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وماَ نهاكمْ عنهُ فانتهوا) والرسولُ انماَ اتانا بشريعةٍ كاملةٍ سمحاءَ وهديٍ وكتابٍ مبينٍ لا ينهى عنْ طلبِ العقلِ للدليلِ لاطمئنانِ الوجدانِ للحقِ واعتمادِ العقولِ عَلَى البرهانِ بلْ يأمرُ بذلكَ ويقرعُ التخريصَ والجدالَ بغيرِ علمٍ ويدعوُ الى الحقِّ بالبرهانِ ويصفُ المؤمنينَ بكونهمْ لايعملونَ الاَّ عَلَى بينةٍ منْ كلِّ أمرٍ بلْ والكتابُ كلُّهُ معجزةٌ منْ معجزاتِ البرهانِ التي تأيدتْ بهاَ رسالةُ نبيِّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ هذا وهوَ يذمُّ اهلَ التضليلِ وينهى عن استماعِ اللغوِ منَ القولِ ويشيرُ الى انَّ اهلهَ معروفونَ وبالتحريفِ موصوفون

وذلكَ بقولهِ تعالىَ (ولتعرفنهمُ في لحنِ القولِ)

واما بقيةُ انواعِ التغريرِ فكثيرةٌ والكلامُ عليها طويلٌ وما مرَّ منها فيهِ الكفايةُ . والتغريرُ منْ حيثُ هوَ ظلمٌ وعدمُ امانةٍ وفاعلهُ خائنٌ اثيمٌ بعيدٌ عنْ مراتبِ الشرفِ والذمةِ مكروهٌ منَ اللهِ والناسِ . واللهُ سبحانهُ وتعالى نهى المؤمنينَ عن الخيانةِ وامرَهمْ بالصدقِ والامانةِ فقالَ تعالىَ (يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكمُ وانتمْ تعلمون) وقالَ تعالى (انَّ اللهَ لا يحبُّ منْ كانَ خوّاناً اثيماً) وما إخالُ الاَّ انَّ كلَ مستمعٍ منكمْ لمجردِ اسمِ الخيانةِ يشعرُ بحسٍّ غريبٍ ينبهُ فيهِ سائرَ عواطفِ الاشمئزازِ منْ هذا الاسمِ الشنيعِ الذي تأباهُ النفوسُ الشريفةُ ويتألمُ منهُ السمعُ فكيفَ بالعملِ نفسهِ انهُ اشدُّ تنكيلاً بالنفسِ ووخزاً للضمائرِ وقانا اللهُ جميعاً مزلةَ القدمِ فيهِ وعاقبةَ الندامةِ منهُ انهُ مجيبُ الدعاءِ

انتهى الكلامُ على مراتبِ العدلِ الثلاثِ ولنتكلمْ على بقيةِ المقوّماتِ

﴿ الدرسُ الثامنَ عشرَ ﴾

﴿ الثباتُ والصبرُ ﴾

(انَّ الانسانَ لفي خسرٍ الاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصوْا بالحقِّ وتواصوْا بالصبرِ)

انَّ الدنيا ميدانٌ تتسابقُ فيهِ الهممُ وتتبارَى عليه الاممُ فمنْ سبقَ فازَ بالحسنى وكانتْ يدُه في هذا الوجودِ هي العليا ومنْ قصرَ وونى (١) كانتْ يدُه هي الدنيا وعاشَ عيشةَ الاذلِّ الادنى وانما ينالُ السبقُ بالثباتِ والصبرِ وعدمِ التقلبِ والضجرِ وليسَ في الوجودِ عملٌ الاَّ ويحتاجُ الى الثباتِ بنسبةِ مافيهِ منَ المشاقِّ وما يحولُ دونه منَ العوائقِ التي لا يزيلها الاَّ المثابرةُ عليهِ والثباتُ لهُ . وفي الحقيقةِ فانهُ ما افاضَ نورُ العقلِ علىَ نفسِ الانسانِ منْ هدىً وماحركَ الآمالَ فدفعَ بالرجالِ الىَ جلائلِ الاعمالِ فتناولوا اسرارَ الطبيعةِ منْ كبدِ السماءِ واستخرجوا كنوزَ الغنىَ والثروةِ منْ بطونِ الارضِ وما عمرَ الارضَ واحياها وشيدَ دعائمَ المدنيةِ وبناها وما مكنَ في النفوسِ رغائبَ الحياةِ فتنافستْ بمحاسنِ الاعمالِ

(١) تعب

واستمسكتْ بعروةِ الجدِّ فبلغتْ منتهى الكمالِ . وبالجملةِ ما قامَ لوجودِ البشرِ وجودٌ وقربَ طريقَ السعادةِ للانسانِ كالثباتِ الثباتِ نعمَ الثباتُ الثباتُ وفي المثلِ منْ ثبتَ نبتَ ومنْ صبرَ ظفرَ وكيفَ لا يظفرُ الصابرُ برغائبه وينالُ ذو الثباتِ متمناهُ وقدْ قالَ اللهُ تعالى في كتابهِ الكريمِ (انَّ الانسانَ لفي خسرٍ الاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصوْا بالحقِ وتواصوْا بالصبرِ) وقولُ اللهِ هذا خيرُ منبهٍ للمؤمنينَ علىَ الثباتِ والصبرِ واذا بحثنا في تاريخِ الامةِ الاسلاميةِ نجدُ انَّ الصبرَ والثباتَ كانا منْ اهمِّ دواعي سيادتِها علىَ الاممِ وترقيها في معارجِ المجدِ وهكذا الحالُ ايضاً في كلِّ امةٍ كانَ الثباتُ رائدَها وقوةُ العزيمةِ سندَها وهل ظهرَ افرادُ الرجالِ الاَّ بالثباتِ ؟ وهلْ خدمتِ المدنيةَ قوةٌ كالاختراعِ والتفننِ بالابتداعِ وانما هيَ قوةٌ لا تصدرُ عنْ غيرِ اهلِ الثباتِ لما يلاقونهُ في سبيلِ العملِ منَ المصاعبِ والمتاعبِ التي لوخالطها شيءٌ منَ الملَلِ والتردد لما نجحَ اربابُها ولخابَ عملُ اصحابِها ولكنْ بالثباتِ بلغوا اقصى الغاياتِ .

ولقدْ بلغَ الثباتُ عندَ علماءِ بعضِ العلومِ في القرونِ

المتوسطةِ للهجريةِ انْ صاروا يكتبونَ علومَهم بالخطوطِ العبرانية مع انها في اللغةِ العربيةِ وذلكَ لكيْ يدفعوا عنهمْ اذى الاضطهادِ الذي كانوا يلاقونَهُ منَ الملوكِ في تلكَ العصورِ (١) وبلغَ الثباتُ ايضاً عندَ علماءِ المغربِ في بعضِ العصورِ المسيحيةِ انْ كانوا ينالونَ منَ الملوكِ انواعَ العذابِ ويساقونَ الى السجونِ بغيرِ حسابٍ ومعَ ذلكَ كانوا لا ينفكونَ عنِ المطالعةِ والبحثِ ولوْ كانَ فيهما المنونُ . ويرسلونَ باشعةِ افكارِهمْ منْ ظلماتِ السجونِ وبثباتِهم هذا خدموا الامم الاوروبيةَ وأخرجوها منْ ظلماتِ الجهالةِ الى نورِ المدنيةِ .

والثباتُ انما هوَ قوةٌ في النفسِ تحتاجُ الى سبقِ الارادةِ وصدقِ العزيمةِ معَ التصميمِ الذي لا يشوبُهُ التردُّدُ في الرأيِ ولهذا وردتِ الاشارةُ في قولهِ تعالى (فاذا عزمتَ فتوكلْ علَى اللهِ) فانَّ منْ توكلَ على اللهِ حقَّ توكلهِ في امرٍ يعزمُ عليهِ ولمْ

(١) ان السبب الداعي لاضطهاد ارباب تلك العلوم في القرون المتوسطة الاسلامية هو تحول حال الحكومات الاسلامية الى حد من الاستبداد يأبى وصول العقول الى درجة العلوم التي تنبه في افكار الامة معرفة الحقوق والواجبات التي انتزعها منهم ذلك الحكم وقد مر في دروس العدل ما فيه البيان الكافي بهذا الصدد

يخالجْ ضميرَه بعد التوكلِ ادنى ترددٍ فيما زم عليهِ فحقٌّ على اللهِ انْ يسهلَ لهُ سبيلَ الوصولِ الى متمناهُ ع واللهُ مع الصابرين

﴿ الدرسُ التاسعَ عشرَ ﴾

﴿ الاعتمادُ بعد اللهِ على النفسِ ﴾

وانْ ليس للانسانِ الاَّ ماسعى وان سعيهُ سوف يرى

اعلموا انَّ اللهَ سبحانه وتعالى فطرَ الناسَ على فطرةٍ هي قوةٌ طبيعيةٌ متهيئةٌ منْ اصلِ الخلقِ للتلونِ بما يعرض عليها من الصورِ في بدءِ النموِّ العقليِّ والجسميِّ فتنطبعُ عليها اشدُّ الصورِ التصاقاً بها ومروراً عليها ومنْ ثمَّ يتولدُ عنْ هذهِ الفطرةِ من الاعمالِ والاخلاقِ في اطوارِ الحياةِ البشريةِ صورٌ كلها تستمدُّ من اصلٍ واحدٍ وهي الصورةُ الاولى . ولهذا يشيرُ الحديثُ النبويُّ الشريفُ (مامنْ مولودٍ الاَّ يولدُ على الفطرةِ فابواهُ يهوّدانه اوينصرانهِ اويمجسانه كماتُنْتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ) ومنَ المعلومِ انَّ الانسانَ مستعدٌّ للترقي بالطبعِ فهذا الاستعدادُ هوَ عينُ تلكَ القوةِ الطبيعيةِ التي خلقها اللهُ في الانسانِ وفطرهُ عليها فاذا عرضَ لها في بدءِ النموِّ العقليِّ

ما يصرفُها الى الكفرِ كفرَ صاحبِها او الى الايمانِ آمنَ او الى النشاطِ والعملِ نشطَ وعملَ او الى الكسلِ كسلَ او الى سوءِ الخلقِ ساءَ خلقه او الى حسنِ الخلقِ حسنَ خلقه وهكذا كلُّ ما عرضَ لها في بدءِ النموِّ العقليِّ والتصقَ بها انصرفتْ اليهِ ونشأتْ عليهِ وقدْ مرَّ على الانسانِ اجيالٌ متطاولةٌ كانَ يعلوُ ويسفلُ فيها بنسبةِ حالِ التربيةِ التي كانتْ تنشأُ عليها فطرتهُ منْ خيرٍ اوْ شرٍ وبلغَ ذلك في الانسانِ في بعضِ الاحيانِ انْ كانَ يخرجُ عنْ كلِّ حولٍ وقوةٍ لاعتقادِهِ بصارفٍ يصرفه من المظاهرِ الطبيعيةِ او الاجرامِ السماويةِ واستسلامهِ في هذا للفطرةِ وما تربَّتْ عليهِ حتى بلغَ ذلك ببعضِ شعوبهِ مبلغاً من التسفلِ والانحطاطِ الى دركاتِ الهمجيةِ ومزالقِ الكفرِ يارئ البريةِ ما اوضحهُ لنا التاريخُ وايدهُ العيانُ في امثالِ اولئكَ الشعوبِ منْ سكانِ افريقيا الآنَ

ولما كانَ مرادُ اللهِ سبحانهُ وتعالى بالانسانِ تشريفهُ وتفضيلهُ على سائرِ الحيوانِ بارشادِهِ الى استخدامِ قواهُ العاقلةِ ومداركهِ العاليةِ في سبيلِ ترقيهِ عنِ المرتبةِ الحيوانيةِ الى المرتبةِ الكاملةِ الانسانيةِ فقدْ شرعَ للشعوبِ من الشرائعِ ما يتكفلُ لهمْ بنوالِ

تلكَ النعمةِ وأَرسلَ لهمُ الرسلَ بذلكَ مبشّرين ومنذرين فكانوا تارةً يُقبلون وتارةً يعرضون وتارةً يؤمنون وتارةً يكفرون حتى بعث اللهُ نبينا محمداً عليهِ الصلاةُ والسلامُ وأَنزلَ عليهِ قرآناً فيهِ هدًى ونورٌ يدعو العقولَ الى الانفكاكِ عنْ قيودِ الاستسلامِ المطلقِ للاوهامِ السابقةِ ويستحثُّها على الانفلاتِ منْ أَسرِ الضلالِ ويرشدُها الى سننِ الكونِ السائرةِ على نظامها الطبيعيِّ المصونِ عنِ الخللِ لقيامه بميزانِ العدلِ الالهيِّ الذي بهِ استتبتْ امورالعالمِ وانتظمَ ذلكَ النظامُ البديعُ واليهِ وردتِ الاشارةُ بقولِه تعالى (والسماءَ رفعها ووضعَ الميزانَ) وبقولِه تعالى (اللهُ الذى انزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانَ) ومنْ عدلِه تعالى القائمِ بميزانِ الحقِّ المبينِ في ذلكَ الكتابِ الكريمِ انَّ الاعمالَ التعبديةَ وانْ يكنِ المقصودُ منها نوالَ الحياةِ الابديةِ في الدارِ الآخرةِ الاَّ انها لاينبغي انْ تمنعَ عنِ العملِ للدنيا كما وردتِ الاشارةُ اليهِ بقولِه تعالى (ولاتنسَ نصيبكَ منَ الدنيا) وذلكَ لانَّ الدنيا ذريعةٌ للآخرةِ ومنْ رحمةِ اللهِ وعدلِه انْ منحَ المؤمنينَ الحُسنى في الدنيا وهوَ التمتعُ بنعيمها كما وعدهم بذلكَ في الآخرةِ وهيَ اجلُّ وابقى ولهذا

وردتِ الاشارةُ بقولِه تعالىَ (وقيلَ للذينَ اتقوْا ماذا انزلَ ربُّكم قالوا خيراً للذينَ احسنوا في هـذه الدنياحسنةٌ ولدارُ الآخرةِ خيرٌ ولنعمَ دارُ المتقين) ومتى بلغَ العقلُ في الانسانِ مبلغَ العلمِ بهذهِ السننِ الالهيةِ تمهدَ لهُ طريقُ الانتفاعِ منْ مداركهِ الساميةِ بالبحثِ عنِ المنافعِ والمضارِّ فهبَّ لاخذِ النافعِ لهُ منْ طريقِ العملِ المتوقفِ علَى الجدِّ والسعيِ كما يشيرُ الى ذلك قولُه تعـالى (وانْ ليس للانسانِ الاَّ ماسعى) وقولهُ تعالى في التنبيهِ علَى انَّ سلطانَ العقلِ مطلقٌ بعدَ اداءِ واجبِ الدينِ فى انْ يسيرَ بصاحبهِ في طرقِ العملِ ابتغاءَ الرزقِ بلْ مكلفٌ الى ذلك (فاذا قضيتِ الصلاةُ فانتشروا في الارضِ وابتغوا منْ فضلِ اللهِ اي منْ رزقهِ)

هذا ماجاءَ بهِ القرآنُ واوضحهُ الاسلامُ للبشرِ لحلِّهم منْ وثاقِ الجهلِ ببدائعِ السننِ الالهيةِ وحضِّهم علَى دفعِ الاوهامِ التي منْ شأنِها اماتةُ العقولِ والاجسامِ ولحثِّهم علَى الاعتمادِ علَى النفسِ بعدَ اللهِ بالعملِ لاالاعتمادِ علَى اوهامِ آبائهم الأُولِ واتهامِ الزمانِ بنتائجِ الخمولِ والكسلِ

الدرسُ العشرون

تتمةٌ في الاعتمادِ على النفسِ

(انَّ في خلقِ السمواتِ والارضِ واختلافِ الليلِ)
(والنهارِ لآياتٍ لاولي الالباب)

الانسانُ مستعدٌ للترقيِّ بالطبعِ ميالٌ الى طلبِ المزيدِ من كلِّ شيءٍ وبهذا الميلِ وتلكَ الفطرةِ التي فطرهُ اللهُ عليها ينشطُ للعملِ ويدأبُ في السعيِ في هذهِ الحياةِ لترقيِّ معيشتهِ وتعزيزِ جانبهِ ولهذا هوَ ميسرٌ وللعملِ والعبادةِ مخلوقٌ لانَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى خلقَ كلَّ شيءٍ فابدعَ صنعهُ بان ناطَ بهِ من الوظائفِ ورتبهُ على نظامٍ منَ السننِ الالهيةِ والنواميسِ الفطريةِ ما نشاهدُ آثارهُ في هذا الوجودِ وبدائعهِ التي يشهدُ بسببها بقدرةِ الخالقِ تعالى كلُّ موجودٍ ولمثلِ هذهِ السننِ والنواميسِ المدبرةِ بحكمةِ الحكيمِ وردتِ الاشارةُ بقولهِ تعالى في القرآنِ الكريمِ . (وكلُّ شيءٍ عندهُ بمقدارٍ) وفي قولهِ تعالى (انَّ في خلقِ السمواتِ والارضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الالباب) والانسانُ بما اودعَ اللهُ فيهِ من قوى العقلِ الباهرةِ واعدَّ لهُ من نعيمِ الاستمتاعِ بنعمِ الارضِ الوافرةِ داخلٌ تحتَ

تلكَ السننِ بما غرزَ فيهِ منَ القوى المدركةِ التي ترشدُهُ الى العملِ والسعي على سننٍ اذا لمْ يجرِ عليها ويعملْ بها لا يتوصلُ الى تلكَ النعمةِ ولا يتمتعُ بذلكَ النعيمِ . وانما يعملُ الانسانُ بتلكَ السننِ ويعلمُها اذا نبذَ الاوهامَ والصدفَ التي يسميّها باسماءٍ ما انزلَ اللهُ بها منْ سلطانٍ كالسعدِ والبختِ ونحوهما منَ الاسماءِ التي تعترضُ ترقي الانسانِ وتمنعهُ منَ الاعتمادِ على النفسِ والنشاطِ في العملِ الذي هوَ مخلوقٌ منْ اجلهِ وميسرٌ لهُ ولا يمكنُ بدونهِ بلوغه درجةَ الكمالِ الانسانيّ التي منْ مقتضاها ترفعهُ عنْ مرتبةِ الحيوانِ وتبسطهُ في مناحي الحضارةِ والعمرانِ وفي الحديثِ (اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له)

اذا تقررَ هذا فقدْ علمتمُ منهُ ومما سبقَ بيانهُ في الدرسِ السابقِ انَّ القرآنَ يدعونا معاشرَ المؤمنينَ الى السعيِ والعملِ والاعتمادِ على النفسِ لا على الاباطيلِ الماضيةِ والاوهامِ المضرةِ التي حثَّنا اللهُ سبحانه وتعالى على الانفلاتِ منها والشذوذِ عنها لئلا تنشأَ عليها اخلاقُنا وتتلوّنَ بها فطرُنا فتصدَّنا عنْ سبيلِ العملِ وتحشرَنا في عدادِ الاممِ الجاهلةِ بمزايا الانسانيةِ الموثقةِ برباطِ الاستسلامِ الاعمى التي ارادَ اللهُ سبحانه

وتعالى بارشادِنا الى طرقِ الخلاصِ منهُ تفضيلنا عليها وتمييزنا عنها كما تعلمونَ ذلكَ منْ قولهِ تعالى « كنتمْ خيرَ امةٍ أُخرجتْ للناسِ »

افليسَ منَ الفضيحةِ والعارِ علَى امةٍ بهذا جاءَ قرآنها وكذلكَ كانَ بينَ الامم شأنها انْ تصبحَ الآنَ ضعيفةَ الافكارِ مستسلمةً لما تسميها الاقدارُ وضعيةَ الجانبِ مهضومةَ الحقِّ مسلوبةَ الاستقلالِ العقليِّ بيدِ البدعِ الضالةِ التي اودتْ بحياةِ النفسِ الطاهرةِ الاسلاميةِ وقتلتْ هممها العاليةَ فاصبحتْ لا تعتمدُ الاَّ علَى التمائمِ ولاَ تعملُ الاَّ بالطيرةِ والفألِ شأنُ الجاهليةِ الاولى الذينَ كانوا في الضلالةِ يخوضونَ (ذلكَ بانهمْ قومٌ لا يعقلون)

ايُّ امةٍ يكونُ الاسلامُ امامها والقرآنُ مرشدَها واللهُ سبحانه وتعالى يعظُها ويذكرُها (وفي الارضِ آياتٌ للموقنينَ وفي انفسكم افلاَ تبصرون) (كذلكَ يبينُ اللهُ لكمُ الآياتِ لعلكمْ تتفكرونَ) وهيَ ترَى انَّ الاستبصارَ انما هو في عدمِ البحثِ عنْ تلكَ الآياتِ ووضعِ العقلِ في وثاقِ الجهلِ بكلِّ ما يخرجُ عنْ علمِ العباداتِ .

وايُّ آيةٍ اعظمُ منْ آيةِ العقلِ الذي اخضعَ نواميسَ الكونِ فاستنزلَ الصواعقَ منَ السماءِ وزجَّ بها في اعماقِ الغبراءِ واستخدمَ البرقَ لنقلِ الاخبارِ والبخارَ لجوبِ القفارِ وفعلَ في هذا الوجودِ افاعيلَه التي تقضي بالاستبصارِ

اللهمَّ انَّ العارفَ ببدائعِ صنعكَ منْ طريقِ العلمِ والدينِ الواقفَ علىَ حقائقِ موجوداتك بالحقِّ اليقينِ المستبصرَ بما خلقتَ في هذا الكونِ منْ عجائبِ مخلوقاتك لاشدُّ حباً لكَ واعتقاداً بالوهيتك وتعظيماً لجلالِ قدرتك وقياماً بحقِّ عبادتك ممنْ همْ لا يعلمونَ ذلكَ ولا يستبصرونَ . و(هلْ يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمون) (ربنا لا تزغْ قلوبَنا بعدَ اذْ هديتَنا وهبْ لنا منْ لدنكَ رحمةً انكَ انتَ الوهاب)

الدرسُ الحادي والعشرونَ

العلمُ والتعلمُ

« يرفعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ والذينَ أُوتوا العلمَ درجات »

العلمُ يهداكمُ اللهُ وارشدكمْ اليهِ مناطُ الحياةِ الاجتماعيةِ واسُّ الحضارةِ والعمرانِ واولُ المقوّماتِ التي لا تقومُ الاَّ بها

حياةُ المجتمعاتِ . وتعريفُ العلمِ بوجهِ الاجمالِ انهُ العقلُ الغريزيُّ اذا ترقّى الىَ متناولِ المعرفةِ بحقائقِ المحسوساتِ لهذا يمدحُ الانسانُ العاقلُ بنسبةِ ماعندهُ منَ العلمِ بتلكَ الحقائقِ فيقالُ فلانٌ عاقلٌ عالمٌ اوْ نابغةٌ اوْ حكيمٌ وهكذا بالتدريجِ وكلما كانَ الانسانُ واسعَ العلمِ كثيرَ المعرفةِ واقفاً علىَ حقائقِ الاشياءِ كلما كانَ وجيهاً في قومه محترماً منَ الناسِ قويَّ الجانبِ مقبولَ الرأيِ عارفاً بطرقِ السعادةِ ميسراً للعملِ شديدَ الهيبةِ في نفوسِ الناسِ وهكذا الحالُ ايضاً باعتبارِ المجموعِ كما هوَ باعتبارِ الافرادِ اي كما تكونُ هذهِ النعوتُ لشخصٍ بمفردهِ كذلكَ تكونُ لامةٍ بمجموعها اذا انتشرتْ بينَ افرادِها انوارُ العلمِ وعمتْ بينهمُ المعارفُ ولادليلَ نقيمهُ لكمْ علىَ هذينِ الامرينِ اعظمُ مما هوَ واقعٌ تحتَ الحسِّ والمشاهدةِ فانّا نرى باعيننا ونسمعُ باذاننا انَّ كلَّ عالمٍ بلغَ درجةَ الكمالِ في العلمِ لاتنفكُّ عنهُ هذهِ النعوتُ ومقامهُ في هيئةِ الاجتماعِ اعلى واعظمُ منْ مقامِ الجاهلِ والامةُ كذلكَ فانَّ الشرقَ الآنَ يموجُ بكثرةِ الامِ والشعوبِ موجَ البحارِ ومعَ هذا فهوَ منحطٌّ عنِ الغربِ بسائرِ اوصافِ القوّةِ والكمالِ وقدْ اصبحتِ السيادةُ

للغربيينَ علىَ معظمِ انحاءِ الشرقِ وسكانهِ ولما ذا ؟ نعلمِ اولئكَ وجهلِ هؤلاءِ.

العلمُ طريقُ السعادةِ للدارينِ ومنبعثُ مجدِ الاممِ وينبوعُ ثروةِ الشعوبِ وما اذلّ الشرقَ بعدَ العزِ وافقرَ سكانه بعد الغنىَ وافقرَ اوطانه بعدَ انْ كانتْ آهلةً بالعلمِ مزدحمةً بطلابهِ الاّ اهمالُ اهلهِ للعلومِ واسترسالُهمْ في الشهواتِ معَ انّ اعظمَ امِ المشرقِ التي بلغتْ اعلى مقاماتِ الحضارةِ وترقتْ في العلومِ الىَ ذروةِ الكمالِ فرفعتْ منارَ التمدنِ وتبسطتْ في مناحي العمرانِ لمْ تبلغْ ما بلغتهُ منْ ذلكَ لامةُ الاسلاميةُ في عصرِ ترقيّها وابانِ مجدِها واينَ هيَ منْ ذلكَ المجدِ الآنَ ؟ ولما ذا اخفى عليها الزمانُ ؟ لتركِها العلومَ النافعةَ فى الدنياواشتغالِها عنْ ذلكَ بالاستغراقِ في البذخِ الذي انهكَ قواها وافقدَها مجدَها ولوِ استمرتْ علىَ خطتِها الاولىَ والقرآنُ امامُها يحثُّها علىَ العلمِ ويمهدُ لها طرقَ السعادةِ لكانتْ لهذا العهدِ صاحبةَ السيادةِ علىَ معظمِ اجزاءِ المعمورِ والمتسلطةَ علىَ خزائنِ الارضِ . ومعَ هذا فهيَ اذا طرحتْ دواعيَ اليأسِ الآنَ واستيقظتْ منْ غفلةِ الوسنانِ واسترشدتْ بالقرآنِ فنهضتْ نهضةَ رجلٍ واحدٍ

في سبيلِ تعميمِ العلمِ والتعليمِ على طرقِهِ النافعةِ واصولِهِ المرغوبةِ لمثلِ هذا العصرِ · عصرِ الاختراعِ والابداعِ · عصرِ العجائبِ والغرائبِ · عصرِ العلومِ والمعارفِ تصلُ بلا ريبٍ الى مبتغاها وتعيدُ سالفَ مجدِها ·

اينما نظرَ المؤمنُ في القرآنِ الكريمِ يرى انَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يحثُّ المؤمنينَ على العلمِ ويخاطبُ العقلَ ويأمرُ بالتبصرِ في آياتِ الكونِ والتفكرِ في خلقِ اللهِ وذلكَ كما في قولِهِ تعالى — لقومٍ يعلمونَ — لقومٍ يتفكرونَ — لقومٍ يعقلونَ — لاولي النهى — لأولي الالبابِ — وغيرِ ذلكَ من الآياتِ الكثيرةِ الدالةِ على عنايةِ اللهِ تعالى بالمؤمنينَ وحثِّهم على اطلاقِ العقلِ من قيدِ الجهلِ المهينِ ليخرجَ بهم من الظلماتِ الى النورِ ومنَ العمى الى الهدى وايةُ عنايةٍ من هذا القبيلِ اعظمُ من عنايتِهِ تعالى بالمؤمنينَ في قولِهِ جلَّ وعلا (اللهُ وليُّ الذينَ آمنوا يخرجُهم من الظلماتِ الى النورِ) · أيْ الى العلمِ · بلْ اي ترغيبٍ بالعلمِ وتشريفٍ لقدرِ العلماءِ احسنُ واجلُّ منْ قولِهِ تعالى (يرفعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ والذينَ اوتوا العلمَ درجاتٍ) بلْ اي منشطٍ على العلمِ داعٍ الى التملصِ من الجهلِ

اعظمُ من قولهِ تعالى يصفُ العلمَ بالحياةِ والجهلَ بالموتِ ويفضلُ العالمينَ على الجاهلينَ (اومَنْ كانَ ميتاً فاحييناهُ وجعلنا لهُ نوراً يمشي بهِ في الناسِ كمنْ مثلهُ في الظلماتِ ليس بخارجٍ منها) لهذا كلّهِ وجبَ علينا معاشرَ المؤمنينَ انْ نسعى وراءَ العلمِ سعيَ الرائدِ المجدِّ لندركَ شاوَ آبائنا الاولينَ ونحيا حياةً طيبةً كحياةِ اسلافنا الطاهرينَ واللهُ معَ الذينَ آمنوا والذينَ همْ متقون

الدرسُ الثاني والعشرونَ

العلمُ بالعملِ

(كبُرَ مقتاً عندَ اللهِ انْ تقولوا مالاَ تفعلون)

لاتستقيمُ اعمالُ الانسانِ الاَّ بالعلمِ اليقينيِّ الذي هوَ ترقّي العقلِ الى درجةِ الاحاطةِ بمايكتنفُ الانسانَ منْ اسبابِ السعادةِ والشقاءِ اوْ تنازعُ البقاءِ الذي هوحياةُ القويِّ بموتِ الضعيفِ وانما يتيسرُ وصولُ العقلِ الى هذهِ الدرجةِ من العلمِ بالتعلم والتهذيبِ اذا رُوعيَ فيهما جانبُ الفضيلةِ على وجهٍ يُشعرُ معهُ المتعلمُ انهُ انما يتعلمُ ليعملَ فينفعَ نفسهُ وبني جنسهِ بالعلمِ وكأينْ منْ عالمٍ لمْ يبلغْ علمهُ درجةَ اليقينِ الداعيةِ للشعورِ

بوجوبِ العملِ وعاشَ عمراً طويلاً في هذا الوجودِ ولمْ يتركْ فيهِ اثراً منْ آثارِ العلمِ النافعِ لانهُ انما علمَ ولكنْ لمْ يعملْ بما علمَ فعلمهُ وجهلهُ سيانِ . اذْ ما الفائدةُ ممنْ يتعلمُ ويقولُ انا عالمٌ ولا يتبعُ القولَ بالعملِ فيعملُ بما رزقهُ اللهُ منَ العلمِ وأولى بمثلِ هذا العالمِ انْ يخشى اللهَ بكذبهِ على العلمِ فانَّ اللهَ تعالى يقولُ « كَبُرَ مقتاً عندَ اللهِ انْ تقولوا مالا تفعلون »

واعلموا أنَّ العلمَ هوَ الميزانُ الذي تتكافأُ بهِ قوى الشعوبِ المتنازعةِ في مضمارِ الحياةِ المدنيةِ مادامَ العملُ بهِ متبادلاً بينَ المتنازعينِ ومتى وقفَ احدُهما عنِ العملِ واستمرَّ الآخرُ في عملهِ رجحَ هذا على ذاكَ بالضرورةِ فنازعه البقاءَ وغلبه عليهِ ولهذا وردتِ الاشارةُ في قولهِ تعالى (لقد ارسلنا رسلنا بالبيناتِ وأنزلنا معهمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ) أيْ بالعدلِ المانعِ منْ تغالبِ الناسِ المفضي الى ضعفِ المجتمعاتِ وفنائِها وانما يقومُ الناسُ بالقسطِ بردِّ جميعِ الاعمالِ الى ميزانِ الشرعِ الذي هوَ الكتابُ المرشدُ الى العلمِ بمصالحِ الانسانِ الدنيويةِ والاخرويةِ ومتى قامَ الناسُ بالقسطِ وتكافؤا بميزانِ العملِ بمصالحِ حياتهمُ الاجتماعيةِ

أَمِنَ كلُّ فريقٍ منهم غائلةَ تنازعِ البقاءِ مالمْ يختلَّ ذلكَ التكافؤُ برجحانِ احدى كفتيْ ميزانِ العملِ من المتنازعينِ فعندئذٍ لا مناصَ من غلبةِ الراجحِ على المرجوحِ وحياةِ قومٍ بفناءِ آخرينَ بحكمِ السننِ الطبيعيةِ التي سبقَ بها العلمُ الالهيُّ في هذا الوجود الخلقيِ واليها يُشيرُ القرآنُ في قولِ اللهِ تعالى (سنةَ اللهِ التي قدْ خلتْ منْ قبلُ ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً) وقولهِ تعالى (وتلكَ الايامُ نداولُها بينَ الناسِ)

اذا تقررَ هذا فقدْ علمتمْ انَّ العلمَ بلا عملٍ لايغني عنِ الحياةِ شيأً بلْ لايكونُ العلمُ علماً الاَّ اذا ظهرتْ آثارُهُ في الخارجِ وانما تظهرُ آثارُهُ بالعملِ فالعملَ العملَ فانَّ خيرَ ما علمهُ الانسانُ هو العملُ والاَّ فأيُّ فائدةٍ منْ علمِ المؤمنِ في دينهِ انَّ الصلاةَ تنهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ اذا لمْ يصلِّ فينتهي عنْ ذلكَ وعلمهِ في دنياهُ انَّ الزراعةَ مثلاً منْ اسبابِ الحياةِ البشريةِ ولمْ يعملْ بالزراعةِ معَ علمهِ بها وبفنونها وهكذا يقالُ في كلِّ علمٍ من علومِ الدينِ والدنيا ومنْ نظرَ منكمْ الى آثارِ العملِ الصادرةِ عنِ العلمِ بالتي تفيضُها على أرجاءِ المشرقِ الامم الاوربيةُ الآنَ يحكمُ حكماً جازماً انْ لاحياةَ لامة ولا بقاءَ

لشعبٍ بازاءِ تلكَ الامم المتمدنةِ مالمْ يجارِها في ميدانِ العملِ مجاراةً لا يعتري صاحبَها الوهنُ ولا الكللُ والاَّ جرفتْ بتيارِ علومِها وجودَ الجاهلينَ وسحقتْ بقوةِ عملِها أجسامَ المستضعفينَ (وما ربُّك بظلامٍ للعبيد) بعدَ اذْ هداهمْ الى طريقِ العملِ وحذّرَهمْ عاقبةَ الاهمالِ والكسلِ وأبانَ لهمْ عنْ سننِ الوجودِ ودعاهمْ بها الى الاستبصارِ والاعتبارِ . فقالَ تعالى (فاعتبروا يا أولي الابصار) وقرعَ المُعرضينَ منهمْ عنِ البحثِ في بدائعِ الكونِ ونظامِه المصونِ فقالَ تعالى (وكأينْ منْ آيةٍ في السمواتِ والارضِ يمرونَ عليها وهمْ عنها معرضون)

الدرسُ الثالثُ والعشرونَ

التربيةُ والاخلاقُ

(يا أيُّها الذينَ آمنوا قوا انفسكمْ واهليكمْ ناراً)

كلما ترقّى العلمُ في امةٍ كانتْ أقربَ لتربيةِ النفوسِ وأدنى منْ تقويمِ الاخلاقِ وتهذيبِها لا سيّما اذا كانَ العلمُ مقروناً بالفضيلةِ وفضيلةُ العلمِ هي عملُ الانسانِ بما يعلمُ والعالمُ يدركُ بالضرورةِ سائرَ المنافعِ والمضارِّ التي تتأتى عنِ الاعمالِ

فاذا كانَ علمُه مقروناً بالفضيلةِ وهيَ العدلُ انتظمتْ سائرُ اعمالِه فعملَ بالنافعِ واجتنبَ الضارَّ والاَّ فاذا لمْ يكنْ هناكَ فضيلةٌ فالعلمُ ناقصٌ فلا عملَ لصاحبِه ولا اخلاقَ . لهذا كانت التربيةُ على الفضائلِ أسَّ العلمِ وافضلَ معارجِ الترقي اذْ انَّ تفشيِ الرذائلِ بينَ امةٍ اذا لمْ يمنعْ منْ ترقيِّها فانهُ يكونُ علةً لسرعةِ سقوطِها لما فيهِ منْ غلبةِ الشهواتِ وتغالبِ النفوسِ على المنكراتِ (وما كانَ ربُّكَ ليُهلكَ القرى بظلمٍ واهلُها مصلحون) وهذه سنةٌ ثابتةٌ منْ سننِ الوجودِ الاجتماعيِّ يؤيدُها قولُهُ تعالى (واذا اردنا ان نُهلكَ قريةً امرْنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرْناها تدميراً) وكأينْ منْ أمةٍ بعدَ صيتِها وتسامتْ صروحُ مجدِها وعظمَ سلطانُها دبتْ فيها سمومُ الرذائلِ فنخرتْ عظامَها واوهنتْ قوتَها فهوتْ الى دركاتِ الهوانِ وانمحى رسمُها منْ عالمِ الانسانِ وانما تصابُ الامُ بهذا الداءِ وتهوي معَ الاهواءِ اذا ساءتْ فيها التربيةُ وفقدَ منْ عندِها التعليمُ على اساسِ الفضيلةِ ولهذا كلّه نبهنا اللهُ سبحانه وتعالى في القرآنِ الكريمِ فقالَ تعالى (يا أيُّها الذينَ آمنوا قوا أنفسكمْ واهليكمْ نارا) اي بأنْ نجتنبَ الرزائلَ ولا

نكتفي بتهذيب أنفسنا على اتباع الفضائل التي نقي نار العذاب في الآخرة والاولى بل نشرك معنا بالتربية على هذه الفضائل أهلينا واولادنا وقال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) أي على ما نشأ عليه وانطبع فيه . و بالطبع ان الناشيء على الفضائل عمله خير من الناشيء على الرذائل وانما يصدر العمل الخير عن النفس التي تربت على الفضائل وتهذبت على حب الكمالات وبالعكس وشاهدنا على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام (مامن مولود الا يولد على الفطرة الخ) وقد مر معنا تتمة هذا الحديث في الدرس التاسع عشر حيث قلنا ان الفطرة الانسانية مستعدة من اصل الخلق للتلون بما يعرض عليها من الصور فتنطبع عليها اشد الصور التصاقا بها ومروراً عليها فاذا كانت تلك الصور صوراً للفضائل نشأ الانسان فاضلاً واذا كانت صوراً للرذائل كان رذيلاً سافلاً فالتربية هي مبدأ حياة للانسان اما سعيدة واما شقية .

اذا تقرر هذا فما لا ريب فيه عندي ان كلاً منكم يتمنى لنفسه الحياة السعيدة كما يتمناها لبنيه وذريته من بعده وانما تنال هذه السعادة بتهذيب النفس على الفضائل

وتعويدِها على اجتنابِ الرذائلِ وخيرُكم منْ عملَ ذلكَ فبادرَ الى تهذيبِ نفسهِ وتقويمِ ماعوجَّ منْ خلقهِ ليكونَ قدوةً صالحةً لاهلهِ ومربياً رشيداً لولدهِ وسنداً قوياً لوطنهِ . فقدْ حانَ لنا واللهِ انْ نرجعَ بالنفوسِ عنْ غيِّها ونعطي هذهِ الحياةَ منَ السعادةِ حقَّها فانَّ الحياةَ قصيرةٌ مهما بالنا نقضيها في الشقاءِ والعبرَ كثيرةٌ فختامَ هذا الاغضاءُ والمرضَ قتالٌ فلمَ لانستعملُ الدواءَ ربنَّا لاتزغْ قلوبَنا واجعلنا منْ عبادِكَ الاخيارِ (ربنَّا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النار)

﴿ الدرسُ الرابعُ والعشرون ﴾

﴿ بيانٌ وتتمةٌ في الاخلاق ﴾

(قدْ افلحَ منْ زكَّاها وقدْ خابَ منْ دسَّاها)

ذكرنا انَّ التربيةَ هي مبدأُ حياةٍ للانسانِ اما سعيدةً واما شقيةً وهو محمولٌ على انَّ الانسانَ اذا نشأَ على شيءٍ من الافعالِ النفسيةِ واستمرَّ على تعاطيهِ فانْ كانَ ذلكَ الفعلُ شراً كانَ صاحبُهُ شريراً وانْ كانَ خيراً كانَ صاحبُهُ خيراً واما اذا لمْ يستمرَّ على تعاطيهِ وحاولَ تغييرَهُ بطولِ الممارسةِ على عكسهِ فمنَ الممكنِ أن يتغير

ومثاله من نشأ على رذيلة ثم اراد تركها فليضعها بحيث يبغضها ويعالج نفسه على تعويدها على الفضيلة وكلما تنبه فيه خلق الرذيلة بادر الى رغم نفسه على التخلق بالفضيلة وهكذا حتى يتمكن فيه هذا التخلق وينصرف عنه ذاك وقد زعم بعضهم ان الاخلاق الرذيلة لا تتغير بدعوى ان الانسان شرير بالطبع وهو زعم فاسد يدحضه قوله تعالى اشارة الى النفس (قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) وزعم آخرون ان السعادة والشقاء غير منوطين باعمال الانسان لانه مسلوب الارادة كالحيوان واذا كتب الله عليه الشقاء اي قدره استمر شقيا الى الازل وهو زعم فاسد ايضا وافتراء على الله وبهتان اذ ان السعادة والشقاء اذا لم يناطا بعمل الانسان سقط التكليف وبطلت الحاجة الى الرسل والشرائع ومعاذ الله ان يكون ذلك كذلك فان الله سبحانه وتعالى يرسل رسله مبشرين ومنذرين مبشرين لمن قالوا (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) ومنذرين لمن قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذب كذلك الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون

الاَّ الظنَّ وانْ انتمْ الاَّ تخرصون)

وفضلاً عنْ هذا فانَّ الاعتقادَ بسلبِ الارادةِ الى ذلكَ الحدِّ استدراجٌ للبشرِ فى الشرورِ والمعاصي وهوَ ظلمٌ تنزهتْ ذاتُ اللهِ سبحانَه وتعالى عنْ مثلهِ وهوَ القائلُ وقولهُ الحقُّ (منْ عملَ صالحًا فلنفسهِ ومنْ أساءَ فعليهاَ وما ربك بظلامٍ للعبيد) والقائل وهوَ اصدقُ منْ قالَ (وما أصابكمْ منْ مصيبةٍ فبما كسبتْ ايديكمْ) والقائلُ سبحانَه وتعالى (انَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ) والعدلُ كما علمتمْ مما مرَّ اساسُ الفضائلِ في سائرِ أعمالِ الانسانِ النفسيةِ والبدنيةِ وهذهِ الفضائلُ هي منتهى السعادةِ الدنيويةِ والاخرويةِ وقدْ كلفنا اللهُ تعالى الى طلبها بالعملِ فلوْ تحتمَ علَى احدِ الشقاءُ لما أُمرَ بطلبِ السعادةِ ومنْ ثمَّ لاينبغي لاحدِنا اذا ابتلي برذيلةٍ انْ يستدرجَ في سائرِ انواعِ الرذائلِ ويقدمَ علَى كلِّ المعاصي لاعتقادهِ بأنَّ ذلكَ قدِّرَ عليهِ ولاَ مفرَّ لهُ منهُ فانَّ هذا كفرٌ صريحٌ واعتقادٌ مناف لحكمةِ اللهِ تعالى في تدبيرِ خلقهِ بلْ ينبغي عليهِ أنْ يعالجَ نفسه بالفضيلةِ ويصدَّها عن الرذيلةِ جهدَ الطاقةِ لئلا تسترسل في الشرورِ المفضيةِ الى انهاكِ الاجسامِ وشديدِ الآلامِ في الدنيا والعذابِ في الآخرةِ ولعذابُ الآخرةِ اشدُّ

وبالجملةِ فالاخلاقُ الفاضلةُ تكتسبُ بالممارسةِ واحسنها ماكانَ من اصلِ الفطرةِ اي مافطرتْ عليهِ النفسُ لتكونَ كالشجرةِ تنموُ فروُعها بنموِّ الاصلِ وتؤتي اكلها كلَّ حينٍ والفضائلُ هيَ الاعمالُ النفسيةوالبدنيةُ التي روعيَ فيهاجانبُ العدلِ وهوَ ردُّ العملِ الى وسطٍ بينَ طرفيِّ الافراطِ والتفريطِ كالكرمِ فانهُ وسطٌ بينَ رذيلتينِ الاسرافِ والبخلِ والشجاعةِ فانها وسطٌ بينَ رذيلتينِ الجنونِ والجبنِ هذا باعتبارِ امهاتِ الفضائلِ واماَّ باعتبارِ سائرِ الاخلاقِ الكريمةِ والفضائلِ فكلُّ عملٍ بدنيٍّ قصد بهِ الاسترزاقُ منْ طرقهِ المشروعةِ كالزراعةِ والتجارةِ مثلاً فهوَ فضيلةٌ وكلُّ عملٍ نفسيٍّ كالصدقِ والامانةِ وحسنِ المعاشرةِ وحبِّ الناسِ وحبِّ الوطنِ وحبِّ العملِ واسداءِ المعروفِ وغيرِ ذلكَ من الاعمالِ المحمودةِ فهوَ منَ الاخلاقِ الكريمةِ ولنذكرْ لكمْ طرفاً منها علَى وجهِ الاجمالِ لتقيسوا غيرَه عليهِ وتختارَ منْ ذلكَ حبَّ الوطنِ وحبَّ الناسِ لانهما منْ اركانِ الاجتماعِ القائمِ على دعائمِ التعاونِ والاتحادِ

﴿ الدرسُ الخامسُ والعشرون ﴾

﴿ حبُّ الوطنِ ﴾

(انَّ الذِي فرضَ عليكَ القرآنَ لرادُّكَ الىَ مَعاد)

الوطنُ طينةُ المرءِ التي نبتَ فيها اصلهُ ونماَ فرعهُ ونشأَةُ حياتهِ التي تغذتْ بهوائهِ واستظلتْ بكنفهِ ودوائهِ ومقرُّهُ الذِي تتجاذبهُ عواملُ الشفقةِ عليهِ والحنينِ اليهِ اذا شطَّ بهِ مزارُه وبعدتْ عنهُ دارهُ وكنهُ الذِي يأوِي اليهِ اذا نبتْ بهِ البلادُ ويتوسعُ فيهِ اذا ضاقتْ عليهِ الارباضُ ربمَّا غادرَ المرءُ وطنهُ احياناً لفاقةٍ تصيبهُ او ذُلٍّ يراهُ واستقرَّ في موطنِ غيرهِ يفيضُ عليهِ منَ النعمِ اشكالاً ومنَ العزِّ هيبةً وجلالاً فيستكنُّ فيهِ عمرَه يستدرُّ خيرَه وميرَه فيبتنِي لنفسهِ الدورَ ويأوِي الى شاهقاتِ القصورِ ويتمتعُ بأحسنِ ما يتمتعُ بهِ النظرُ ويلذُّ للنفسِ شاكراً خروجه منْ ضيقِ العيشِ الىَ سعتهِ ومنْ ذلِّ الجوارِ الىَ عزتهِ وبينماَ هوَ في هذا النعيمِ المقيمِ يطرأُ عليهِ خبرٌ عنْ جائحةٍ اصابتْ وطنهُ أوْ مصيبةٍ حلتْ فيهِ أوْ عدوٍّ غلبَ عليهِ فتنزعجُ لذلكَ جوانحهُ وتتألمُ جوارحهُ ويتنغصُ عيشهُ وتنكمشُ

عضلاته وتنقبض اسارير وجهه وربما يغلب عليه الخنوث فيجهر بالاواه وينادي واسفاه واوطناه كل ذلك وهو لا يملك فيه شبراً ولا ينتظر لنفسه منه خيراً . اذاً فما هذا الباعث الغريب والسر العجيب ؟ ما هذا المؤثر القاهر والاحساس الطاهر ؟ هذا حب الوطن نعم حب الوطن لان سلطانه فوق كل سلطان واثره لا ينمحي عن صفحات الجنان فكم بيعت في سبيله النفوس بيع السماح وكم رخصت دونه ارواح وغلت ارواح بل كم رفع لرجال ذكراً كان خاملاً وشيد لاعمالهم اثراً ماتوا وظل باقياً . حب الوطن ولا نكران للحق اشرف خلق يتحلى به الانسان واحسن شيمة ينطوي عليها الجنان وهو من اخلاق الانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعد هجرته الى المدينة يحن الى وطنه مكة حنيناً كثيراً مع انه خرج منها وهو غير راض عن اهلها لمعاداتهم له وايصالهم الاذية اليه حتى وعده الله سبحانه وتعالى بان يريه اياها ويردّه اليها وذلك في قوله تعالى (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) ولما انجز الله له وعده ودخلها عام الفتح ظافراً بمن كانوا اشد الناس عداوة له وهم قريش نادى

منادي الرسولِ من دخلَ البيتَ كانَ آمناً من دخلَ دارَ فلانٍ كانَ آمناً اي لا يقتلُ قصدَ بهذا حقنَ الدماءِ وذلك حناناً منهُ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ بمواطنيه وعشيرتهِ ولطفاً بوطنهِ ومسقطِ رأسهِ ولهذا قال عليهِ الصلاةُ والسلامُ (حبُّ الوطنِ من الايمانِ) والمؤمنُ يتحملُ المصاعبَ والمشاقَّ دونَ الايمانِ ويجتنبُ المهالكَ الاَّ دونَ الايمانِ ويمسكُ عنِ الاسرافِ والتبذيرِ الاَّ في سبيلِ الايمانِ ويخرجُ عن نفسه وماله للايمانِ وبالجملةِ فحقوقُ الوطنِ على المؤمنِ هي حقوقُ الايمانِ مادامَ حبُّ الوطنِ من الايمانِ . ولهذا جاءَ القرآنُ قارناً بين حقِّ الدينِ وحقِّ الوطنِ وذلك بقولهِ تعالى (لا ينهاكمُ اللهُ عنِ الذين لم يقاتلوكمْ في الدينِ ولمْ يخرجوكمْ من دياركمْ ان تبروهمْ وتقسطوا اليهمْ انَّ اللهَ يحبُّ المقسطينَ) الآية

الوطنُ جامعُ ما تفرقَ وضامُّ الشتيتَ منَ الانسانِ وانَّما تقومُ المدنيةُ حيثُ يكونُ الاجتماعُ وتستبحرُ الحضارةُ حيثُ تتألفُ القلوبُ على العملِ ويمتدُّ العمرانُ حيثُ يجتمعُ الناسُ والانسانُ العاملُ في وطنهِ هو الامةُ لانَّ الامةَ هي العملُ ومنْ لمْ يعملْ في وطنهِ فعدمهُ خيرٌ من حياتهِ لانهُ يشغلُ فراغاً

منَ الوجودِ أَحقُّ انْ يشغلَه سواهُ وما اصيبَ وطنٌ منْ اهلِه بمثلِ الكسلِ كما لمْ يعتزَّ وطنٌ منْ اهلِه بمثلِ العملِ . مجدُ الوطنِ وسعادتُه ببنيه وبنوهُ بالعملِ . فالعملَ العملَ وأَنجحُ الاعمالِ عملٌ سبقَه العزمُ وحفَّه الثباتُ وروعيتْ فيهِ تقوى اللهِ واللهُ لايضيعُ اجرَ العاملين .

هؤلاءِ الغربيونَ عرفوا مزيةَ العملِ وأَنَّ بهِ سعادةَ اوطانِهم واستفحالَ مجدِهم فانكفؤا على اطرافِ البسيطِ يلاقونَ المصاعبَ ويقاسونَ الاهوالَ ويجوبونَ الاقطارَ ويخترقونَ القفارَ لاكتشافِ علمٍ ينفعونَ بهِ وطنَهم أَوْ عملٍ سياسيٍّ يوسعُ اطرافَ ملكِهم فاستبحرَ بذلكَ عمرانُهم وغصتْ بما استفتحوه منْ كنوزِ الارضِ اوطانُهم فملكوا رقابَ البشرِ واخذوا بنواصي الشعوبِ فرفعوا قدرَ الوطنيةِ وابانوا عنْ فضلِ العملِ

هكذا تفعلُ الأُممُ الحيةُ وبهذا تحيى النفوسُ الميتةُ وذلكَ هوَ نشاطُ الحياةِ الطيبةِ وثمرةُ العقلِ المطلقِ فارزقنا اللهمَّ نوراً منهُ نهتدي بهِ في ظلمةٍ غشيتْ اوطاننا واضلتْ افكارَنا فتركتْنا في حيرةٍ لامناصَ منها الاَّ بالعملِ نعمَ العملُ العملُ

(منْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره) . واللهُ مسهلُ الأَسبابِ

﴿ الدرسُ السادسُ والعشرونَ ﴾

﴿ حبُّ الناسِ ﴾

(ويُؤثرونَ عَلَى انفسِهم ولوْ كانَ بهمْ خصاصةٌ)

انَّ منتهى ماتوصفُ بهِ أُمةٌ منْ مكارمِ الاخلاقِ الحبُّ المتبادلُ عَلَى الوجهِ الذي وصفَ اللهُ تعالى بهِ المؤمنينَ بقولهِ تعالى (ويؤثرون عَلَى انفسِهم ولوْ كانَ بهمْ خصاصةٌ) هكذا كانَ المؤمنونَ يؤثرُ احدُهم الآخرَ عَلَى نفسهِ بالشيءِ مهما كانَ شديدَ الحاجةِ اليهِ وبلغَ بهمْ هذا الحبُّ المتبادلُ الى حدٍّ منَ الثقةِ بعضهم ببعضٍ انْ كانَ احدُهم ثقةً باخوانهِ المؤمنينَ لا يأتي امراً الاَّ بمشورتهم عليهِ وطلبِ المناصحةِ فيهِ وكانوا اخلاءَ بالمالِ منْ عظمِ الثقةِ المتبادلةِ كماوصفهمْ بذلكَ اللهُ تعالى بقولهِ جلَّ منْ قائلٍ (وامرُهم شورَي بينهمْ ومماَّ رزقناهمْ ينفقون) انَّ العقلَ مهما تصورَ منَ السوددِ لمثلِ هذهِ الامةِ فهوَ قليلٌ بالنسبةِ لما كانَ عليه شأنُها وجاءَ بهِ قرآنُها وما بلغتْ منَ الرفعةِ والمجدِ درجةً حيرتْ عقولَ الباحثينَ في تواريخِ الاممِ ودلتْ

على مقدارِ فضلِ التآلفِ والاتحادِ الاَّ بمثلِ تلكَ الاخلاقِ الكريمةِ والاعمالِ الشريفةِ الصادرةِ عن قلوبٍ ملؤُها الايمانُ وعواطفَ كلها حنانٌ . عن أناسٍ كان احبَّ الى احدِهم ان يؤلفَ بينَ قلبينِ من ان يملكَ مابين قطرينِ . عن ناسٍ وصفهم نبيهم صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمَّ بقولهِ:

(المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضهُ بعضاً) عن أناسٍ بلغَ من حبِّ خليفتهم للمؤمنينَ وحرصهِ على راحةِ المسلمينَ ان كانَ اذا سمعَ بوقوعِ ضرٍ باحدهم يمرغُ وجههُ بالترابِ ويقولُ واخجلتاهُ واعمراهُ ايصابُ فلانٌ بكذاوانتَ غافلٌ عن كشفِ الضرِ عنهُ ليتَ امي لمْ تلدْني

ايُّ عاطفةٍ لا تتحركُ وايُّ قلبٍ لا ينتعشُ وايُّ قاسٍ لا يلينُ لمثلِ هذا الاحساسِ الظاهرِ والحبِّ المتمكنِ من اعماقِ قلوبِ المؤمنينَ . اللهمَّ ارزقنا عودةً على بدءٍ ويسرْ لنا من امرِنا فرجاً فقدْ ضاقتِ الصدورُ وتنافرتِ الانفسُ وتباغضَ المؤمنونَ وتخادلَ المسلمونَ فحلَّ بهمْ البلاءُ وتناوشتهمُ الاعداءُ وزالتْ ثقتهمْ من الصدورِ فتناكروا وبارتْ تجارةُ العهدِ عندهمْ فتنافروانزغَ بينهمْ نازغُ الفسادِ

فارداهمْ وغفلوا عن وصايا اللهِ سبحانه وتعالىَ ونبيِّهِ فساءتْ عقباهمْ يقولُ لهمُ اللهُ سبحانه وتعالىَ علَى لسانِ نبيِّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ (وقلْ لعبادِي يقولوا التي هيَ احسنُ انَّ الشيطانَ ينزغُ بينهمْ) فلاَ يتدبرونَ وفي البغضاءِ يتمادونَ. ويقولُ لهمْ رسولهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ (احبُّكم اليَّ احاسنُكمْ اخلاقاً الموطؤنَ اكنافاً الذينَ يألفونَ ويؤلفونَ) فلاَ يشعرونَ بمعنىَ هذا التأليفِ ولاَ يعملونَ وعنِ العاقبةِ همْ غافلونَ

اخواني اتظنونَ انَّ لكمْ حياةً بعدَ اليومِ الاَّ بالتأليف؟ اترونَ انها تقومُ لكمْ قائمةٌ الاَّ بتبادلِ الحبِّ؟ هلْ تنشأُ الثقةُ الاَّ عنِ الحبِّ؟ اتقومُ التجارةُ والصناعةُ والزراعةُ وكلُّ اسبابِ المعاشِ الاَّ بالثقةِ؟

ايحيَا الناسُ بدونِ المالِ؟ هلْ يتيسرُ المالُ الاَّ باصولِ المكاسبِ؟ هلْ تنمو هذهِ الاصولُ الاَّ بالثقةِ؟ اتكونُ ثقةٌ حيثُ لا يكونُ الحبُّ؟ لاَ واللهِ: لاَ تكونُ فاحفظوا عنيِّ هذهِ الشؤونَ واتقوُا اللهَ فيما انتمْ فيهِ منَ اللهوِ واللعبِ تخوضونَ والفوا بينَ قلوبِكمْ وتعاونوا علَى امرِ دنياكمْ واختاروا اقربَ طريقٍ لنجحِ مسعاكمْ ومنْ يفعلْ ذلكَ فاولئكَ همُ المفلحونَ

تفرقتم واجتمع الغربيون وتهاونتم ونشط الاوربيون فنزلوا بقضهم وقضيضهم عليكم وتمكنوا بجماعاتهم من منفرديكم وبشركاتهم دون منافع اوطانكم وبنشاطهم من خمولكم وبجدهم من تقاعسكم فاسسوا بينكم المصانع واحتكروا المنافع وفعلوا كل افاعيل الحياة النشيطة التي ملأت فراغ الوجود عبراً تمثل قدرة الانسان تمثيلاً لا يدع لكم سبيلاً للاعتذار عن مجاراتهم الا بفقد الحياة الحساسة فيكم وموت الشعور الطاهر منكم ومعاذ الله ان يكون ذلك كذلك وانتم ابناء من باثارهم اهتدى الغربيون وبهم عرفت مزايا الاجتماع وهم رافعو منار الدول . ومؤسسو ادعائم العمل . الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع لكلمة من داعي الحق اذا دعاهم ومنادي حي على العمل اذا ناداهم . واي عمل للمؤمنين الآن افضل من جمع كلمتهم على العمل وتأليف قلوبهم على الحب ليعدوا للغربيين من القوة ما استطاعوا من نوع قوتهم ويقيموا من العلم والعمل سداً دون اطماعهم قال تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قاتل فليقاتل كما يقاتل) انهم يقاتلوننا بقوة العلم والاختراع فهل اعددنا لهم

مثلها اوْ ادنىَ منها ؟ لاَ واللهِ بلْ نحنُ عالةٌ عليهمْ مفتقرونَ في ادنىَ الضروريات اليهمْ . اخواني لا تكونوا كمنْ جعلوا بأسهمْ بينهمْ فكانوا منَ الاخسرينَ اعمالاً بلْ كونوا كما كانَ اسلافُكم منَ المؤمنينَ رحماءَ بينهمْ اشداءَ علَى منْ عداهمْ واللهُ معَ المتقينَ

﴿ الدرسُ السابعُ والعشرونَ ﴾

﴿ خاتمةٌ فيها تذكيرٌ ﴾

(وذكّرْ فانَّ الذكرَى تنفعُ المؤمنينَ)

ايتها الشبيبةُ الشرقيةُ منْ ابناءِ الاخوّةِ الاسلاميةِ هذا كتابٌ اتلوهُ عليكمْ بالحقِّ لعلكمْ تذكرونَ وما انا باقلَّ منكمْ حاجةً الىَ التذكيرِ وانما هوَ ضميرٌ كضمائركمْ ووجدانٌ كوجدانِكمْ وشعورٌ كشعوركم بعثَ فيَّ نشاطُ الفكرِ لخدمةِ الامةِ بذرَّةٍ مما يجبُ علَى كلِّ فردٍ يشتغلُ لحياتهِ الاَ لحياتهِ اذْ انَّ حياةَ الفردِ الواحدِ بالنسبةِ لحياةِ الامةِ اقصرُ منْ انْ يشتغلَ بها لحياتهِ وانما هوَ يشتغلُ لحياةِ الامةِ وانما يكونُ المسلمُ مشتغلاً لحياةِ الامةِ اذا استجابَ للهِ وللرسولِ فيما يحيي

اخوانه المسلمينَ (يا أيُّها الذينَ آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ اذا دعاكمْ لِما يحييكمْ) وأيةُ حياةٍ اشرفُ واسمى منْ حياةِ امةٍ يدعوها كتابُها الى حياةِ العقلِ والارادةِ والنشاطِ الى حياةِ المجدِ والقوةِ والعزةِ والسيادةِ الى حياةِ العملِ والجدِّ نعمْ الى هذهِ الحياةِ يدعوُ القرآنُ المؤمنينَ . ولاجلها تجافتْ جنوبهم عنِ المضاجعِ مئاتٍ منَ السنينَ لا يُرى احدُهم الاَّ على متنِ جوادٍ أوْ غاربِ بعيرٍ فدوَّخوا الممالكَ ووطئوا بسنابكِ خيولهمْ معظمَ عواصمِ الارضِ فاخترقوا جدارَ الصينِ منَ الشرقِ وقطعوا جبالَ البرنات في الغربِ وما استقروا في مكانٍ الاَّ مصروا فيهِ الامصارَ وشيَّدوا للعلومِ دوراً ورفعوا للدينِ مناراً وأقاموا للمجدِ والسيادةِ دعائمَ وأحيوْ للسياسةِ معالمَ فمهدوا للاسلامِ طريقَ الانتشارِ فبلغَ الهندَ والصينَ شرقاً واخترقَ المحيطَ الغربيَّ غرباً ووصل الى شطوطِ المنجمدِ الشماليِّ ممَّا يلي سبيريا شمالاً وعمَّ جزائرَ المحيطِ الجنوبي جنوباً

اين تلك العصابةُ المؤمنةُ وما الذي ذهب بهذهِ الحياةِ النشيطةِ ؟ اليس هو فسادٌ تطرق بعدُ الى تربيةِ افكارِ الامةِ منْ خلفٍ أتى بعدَ تلك العصابةِ فأخلدَ الى الراحةِ واستغرقَ

في الشهواتِ فاعتذرَ عنْ عدمِ مجاراتهِ لتلكَ العصابةِ العاملةِ منَ المؤمنينَ بأنَّ الزهدَ عنِ العملِ منَ الدينِ والدينُ بالزهدِ وانْ ليسَ للمؤمنِ انْ يسعدَ بعملهِ أَوْ يشقى أَوْ يشتغلَ في دنياهُ ولهُ الاخرَى وانهُ مسلوبُ (١) الارادةِ فلاَ يسعى مسوقٌ بالقضاءِ كالبهيمةِ العجماءِ تذهبُ بفطرتِها الى المرعى (٢)

(١) هذا اعتقاد فرقة تسمى الجبرية ولكن محاهم الله وكثيراً من اهل البدع الضالة في الاسلام (٢) مر في الدروس الماضية من الادلة القرآنية عَلَى ابطال هذه المزاعم مافيه الكفاية واما مسألة القضاء فهي في الحقيقة اعتقاد فاش بين عامة الامة عَلَى وجه يخالف ماكان يعتقده السلف وخاصة الخلف ايضاً لقصر عقولهم عن تناول مغزى القضاء الذي هو عند أَئمة الاشعرية والماتريدية من اهل السنة تعلق الارادة الالهية او العلم الالهي بخلق الاشياء عَلَى ماهي عليه من الازل واليك ماقاله الاشعرية في القضاء

ارادة اللهِ مع التعلق ✲ في أَزل قضاؤه تحقق

وما قاله الماتريدية

والقدر الايجاد للاشياعَلَى ✲ وفق مراد الله جل وعلا

وليس في هذا مايتصوره العامة من وجوب الاعتقاد بسلب الارادة الانسانية بل الانسان ذو ارادة واختيار وهو الكسب الذي يسميه أَئمة الدين الجزء الاختياري وانما المغالاة في العقائد عند العامة من اهل كل دين كثيراً ماتؤثر عَلَى نفوسهم آثاراً تظهر عَلَى اعمالهم البدنية بصفة لاتنطبق عَلَى أصل العقيدة ومن هذا القبيل مغالاة كثير

سبحانك اللهم ان هذا الا بهتان على دينك وافتراء على رسولك والقائمين معه من المؤمنين الذين هم ارسخ علما واعظم ايماناً واشد تمسكاً بالدين . واعتداءً بالكتاب المبين . ومع هذا فقد كان منهم مثل عثمان رضي الله تعالى عنه الذي صار

من عامة المسلمين بعقيدة القضاء التي اتهمنا الفرنجة بسببها بموت الارادة وفقد الاحساس وقالوا اننا أصبحنا معرضين بهذا الاعتقاد لقبول كل بلاء ينزل بنا ولو مهما كان فيه من ضعة وذل وهوان وان امة هذا اعتقادها لا تؤمل لها حياة بين الاحياء بحكم السنة الطبيعية سنة بقاء الانسب التي يفضى بها تنازع البقاء ولو انصف الافرنج وتمعنوا قليلا في تاريخ الاسلام وما فعله المسلمون من الانقلاب السياسي والعلمي في العالم اجمع لظهر لهم ان الاسلام بريء من هذه الوصمة بعد ما ظهر من اهله من آثار العمل في الوجود مالم يظهر اثره فى امة من الامم من قبل . وانما هناك خطأ في فهم القضاء اوجب التحريف في هذه العقيدة عند العامة ولا بد في اصلاح هذا الخطأ من نهوض أئمة المسلمين الى تدارك الامر قبل ان يتحقق ظن الاوربيين في بقية هذه الامة كما تحقق في قسم عظيم منها خنع للاستعباد واستنام لحكم الاجنبي فارتكس في امواج الحيرة واصبح هدفا الاضمحلال لا سمح الله . ولا شك ان علماء هذه الامة هم المسؤلون عن هذا الحيف الملحق بالمسلمين الذين اقعدتهم الاوهام عن مجاراة الامم الحية ومكافحة الحوادث بسلاح الجد والعمل والله بالعاقبة عليم

خليفةً ولم يدعِ الاشتغالَ بالتجارةِ او يكونَ يوماً بثروته العظيمةِ من الزاهدينَ ومثلُ خالدِ بنِ الوليدِ رضى اللهُ تعالى عنهُ الذي لم يفتأ منذ دخلَ في الاسلامِ عاملاً في خدمةِ المسلمينَ ممتطياً صهوةَ جوادِه آناءَ الليلِ واطرافَ النهارِ يخوضُ بجيوشِ المؤمنينَ القفارَ ويفتحُ لهم الممالكَ ويدوّخُ الامصارَ ولم يضطجعْ على فراشِ الراحةِ الاَّ ايامَ مرضِه التي قضاها وهو يتأوهُ من عدمِ العملِ تأوهَ الولهانِ ويقولُ اعلى هذا الفراشِ اموتُ لا عاشَ الجبانُ لا عاشَ الجبانُ

لا جرمَ انَّ هذهِ العصابةَ الطاهرةَ التي رفعتْ مجدَ الاسلامِ وشيدتْ بعملها المتواصلِ وسعيها الحثيثِ دعائمَ الدولِ واستولتْ على كنوزِ الارضِ واخذتْ بأعنةِ التجارةِ والصناعةِ والعلمِ والمعارفِ والرئاسةِ والسياسةِ بعد انْ كانتْ في بداوتها بمعزلٍ عنْ هذا كلّه لعصابةٌ عرفتْ حقيقةَ الاسلامِ وما يدعوُ اليهِ فأخذتْ نصيبها من الدنيا والدينِ وكانتْ بالسعادةِ القصوى من الفائزينَ لاهتدائها بنورِ الكتابِ المبينِ الذي أُنزلَ فيهِ على خاتمِ النبيينَ عليهِ افضلُ الصلاةِ والتسليمِ (ونزلنا اليكَ الكتابَ تبياناً لكلّ شيءٍ وهدىً ورحمةً)

اخواني انَّ اخوفَ ما يكونُ عَلَى الامِ من الهلاكِ انحرافُها عنْ دينٍ أُنزلَ عليها بالحقِّ واعراضُها عنِ السننِ النافعةِ التي سنَّها للخلقِ وهذا ماقضى عَلَى قومِ نوحٍ وابراهيمَ وموسى منْ قبلُ اذِ استعملوا الاديانَ آلةً لغيرِ ماوضعتْ لهُ فذبحتهمْ بحدِّها فلا تكونوا كأولئكَ الغابرينَ (ياايُّها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا معَ الصادقينَ) انتهى الكتابُ

LIBRARY
OF BEIRUT

American University of Beirut

170
A99dA

General Library

170
A99dA
C.1